



رواية
تلك الليلة
سنتلاحقك

منى الطوخي





تلك الليلة ستلاحقك

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب سحر الكتب

sa7eralkutub.com

او زيارة موقعنا



لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا



لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

sa7eralkutub.com

او زيارة موقعنا



منى الطوخي : تلك الليلة ستلاحقك، رواية

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠١٩

رقم الإيداع: ٢٦٧٦٨ / ٢٠١٨ - التقييم الدولي: 8 - 146 - 806 - 977 - 978

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة

بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

© دار دَوْن

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية

انضموا لجروب سحر الكتب

sa7eralkutub.com

او زيارة موقعنا



منى الطوخي

تلك الليلة ستلاحقك

رواية



للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

sa7eralkutub.com

او زيارة موقعنا



للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساهر الكتب

sa7eralkutub.com

او زيارة موقعنا



إهداء

إلى كل نفس مطمئنة ونفس لوامة ونفس أمارة بالسوء.
إلى القاهرة درة المدائن..
«كلما اكتمل جزء من القمر نقص جزء مني»

حنين

جسر قصر النيل - جمال يتشوه

ألوان الجدران هادئة تميل إلى اللون البنفسجي الفاتح، صور معلقة عليها صغيرة وبسيطة، ساعة كبيرة وفخمة معلقة في وسط الحجرة في مواجهة مكتب دكتور شريف الراوي الفخم.

اقتربت الساعة من التاسعة مساءً؛ لا يزال دكتور شريف يتحدث مع المريض، رغم أن العيادة تُغلق الساعة الثامنة.

المريض: - أعلم يا دكتور أن الأمر لن يمر بسهولة، لكنني أعاني من الإرهاق وقلة النوم. هلا كتبت لي منوماً إذا سمحت؟
دكتور شريف ينظر إلى ساعة يده، ويتقدم نحو الساعة الكبيرة بخطى وثيدة ليلفت نظر المريض للوقت.

دكتور شريف: - لا.... المهدئات والمنومات تضر في حالتك أكثر من الأرق، لأنها تثير الاكتئاب، ثق في طبيبك، سيمر هذا الوقت، لنتحمله قليلاً.

انتبه المريض للساعة واعتذر له على الإطالة بخجل شديد، تقدم دكتور شريف تجاهه وربت على كتفه وأكد له أنه لم يتضرر أبداً وأنه سعيد للتحسن الملحوظ في حالته، أكد له أن الأرق لن يدوم كثيراً ونصحته بالقراءة أو مشاهدة التلفزيون إلى أن يغلبه النعاس.

أمسك دكتور شريف التليفون وتحدث مع مساعده وطلب منه أن يحضر، اتجه إلى الشرفة الكبيرة المطلة على كوبري قصر النيل وأخذ نفسًا طويلاً بعد يوم شاق متعب.

دكتور شريف منزعجًا: - ما بك يا منعم تنادينني بهذا الصوت العالي؟

منعم مرتبكًا: - أنا أسف يا دكتور، ناديت عليك كثيرًا ولكنك لم تسمعني.

دكتور شريف متجاهلاً: - حصل خير.

منعم: - أريد أن أسألك سؤالاً؟

دكتور شريف: - اسأل.

منعم: - لماذا أراك دائماً في مثل هذه الحالة كلما نظرت من الشرفة؟

دكتور شريف مشيراً إلى جسر قصر النيل: - هل تعلم ما هذا يا منعم؟

منعم: - طبعاً جسر قصر النيل.

دكتور شريف: - هل تعلم لماذا سمي بهذا الاسم؟

منعم: - لا.

دكتور شريف: - هذا الجسر بدأ بناؤه عام ١٨٦٩ واكتمل

عام ١٨٧١ للربط بين القاهرة والجزيرة، تمت تسميته بهذا الاسم

نسبة لقصر الأميرة نازلي بنت محمد علي باشا المقابل للجسر

تمامًا، المدهش في الأمر أن رسوم مرور الجسر كانت تحتوي على تعريفات للرجال والنساء والعربات، بينما الغزلان والنعام والأطفال معفون من هذه الرسوم.

منعم ضاحكًا: - ياه يا دكتور كان النعام والغزلان هكذا في شوارع مصر؟!

دكتور شريف مستنكرًا: - نعم...نحن حقًا بارعون في تشويه الأشياء الجميلة.

أدار ظهره للشرفة وجمع بعض الأوراق ووضعها في حقيبته واتجه نحو الباب، كان منعم لا يزال يتأمل الجسر وعلى وجهه تعبيرات الاندهاش، وعندما انتبه لخروج الدكتور أوقفه سائلًا

منعم: - لم تخبريني يا دكتور أين مكان هذا القصر؟
دكتور شريف مبتسمًا بسخرية: - مبنى جامعة الدول العربية أكمل دكتور شريف طريقه لباب العيادة. التفت منعم مرة أخرى للشرفة وعاد يتأمل الجسر.

عاد دكتور شريف إلى بيته بعد يوم مرهق، رغم أن ملاحظته لم يبد عليها أي إرهاق، شريف رجل أنيق، دمث، له عينان كبيرتان ورفيقتان وحاجبان متوسطا الكثافة، أنفه طويل ومدبب، اكتسبت قسما ت وجهه ونظراته بعض اللين والعذوبة بعد أن اعتاد في بداية عمله افتعالها ليشعر مرضاه بالحميمية، فيتجاوبون

معه بسرعة.

منزل شريف مرتب وأنيق كل شيء في مكانه، كل قطعة أثاث تلمع من نظافتها وأناقتها، جمعتها والدته من كل مكان في العالم ذكرى من كل بلد ذهبت إليها وقضت فيها أيامًا من عمرها مع والده الذي كان يعمل سفيرًا وتنقل بين بلاد العالم إلى أن رقد في مثواه الأخير قبل أن يصل لسن التقاعد ولحقت به زوجته بعد عامين فقط.

ظل شريف وحيدًا في هذا الفراغ المترامي الأطراف المطل على النيل في حي الزمالك ومعه مربيته «الحاجة غالية» التي تعمل لدى أسرته منذ نعومة أظافره وأضحت بمثابة أمه، وليست مربية فحسب.

كانت الحاجة غالية في المطبخ تحضر العشاء عندما عاد شريف من العيادة، لم تنتبه لدخوله إلا عندما رآته أمامها فجأة يضع يديه في جيبه وينظر إليها مبتسمًا فقالت:

- أهلاً يا حبيبي، حمدًا لله على سلامتك.

- الله لا يجرمني منك.

- ولا منك يا ابني، ولو أنني أتمنى أن تعطني بك امرأة غيري

قبلها في جبينها وابتسم قائلاً: -

- بشرط أن تشبهك في كل شيء.

- ماعدا حبي لك، فهو لا يضاهيه حب أبدًا.

- ابتسم وقبلها مرة أخرى، وقبل أن يتركها أوقفته قائلة: -
- ٥ دقائق وسيكون العشاء جاهز، لا بد أنك جائع.
- لا لقد تناولت بعض الطعام في العيادة.
- عبست بوجهها وسألته: -
- أي طعام؟
- ساليزون.
- وهل تطلق على ذاك طعامًا؟! اذهب وتحمم سيكون كل شيء جاهزًا.
- تركها وذهب وهو يعلم أن أي محاولة للهروب من العشاء غر مجدية، استسلم على الفور وذهب إلى الحمام.
- بعد أن تناول العشاء وخلدت مربيته إلى النوم، ذهب إلى غرفة المكتب ليراجع بعض الأوراق، أشعل التلفزيون فقط ليقتل الصمت والسكون المطبق على البيت، كانت أخبار الساعة العاشرة على إحدى القنوات قد بدأت منذ قليل. كان منهمكًا في بعض العقود والأوراق الخاصة بمزرعة والده في طريق الإسماعيلية التي تركها له.
- فجأة ترك الأوراق من يده وانتبه للتلفزيون، جحظت عيناه وهو يسمع ويشاهد خبرًا عن محاولة قتل رجل يدعى هشام محارب لخطيبته حين في شقتها، وأنها ترقد في المشفى في غيبوبة كاملة منذ ثلاثة أيام وحالتها خطيرة، والنيابة تحقق مع الجاني.

كان الخبر مختصرًا لم يذكر فيه أي تفاصيل عن الحادث سوى اسم المغدور بها "حنين"، أمسك هاتفه وبدأ يبحث عن تفاصيل الحادثة لكنه لم يجد أكثر مما جاء في الأخبار.

ارتدى ملابسه وانطلق بسيارته إلى العيادة، وهو في الطريق كانت تظهر وتختفي بعض المشاهد من جلساته مع حنين التي كانت آخر واحدة منها منذ أكثر من عامين تقريبًا، وتذكر أن من أحضرها للعيادة هو نفس الشاب المتهم بقتلها.

دخل العيادة وذهب مباشرة للدولاب الذي يحتفظ فيه بالملفات التي كان يرتبها حسب ما تم فيها، هناك من تم علاجهم، وهناك من أقلعوا عن العلاج وحالات أخرى كان يستلزم تحويلهم إلى مصحات نفسية لصعوبة مرضهم وخطورته على أنفسهم وعلى الآخرين، كان ملف حنين من النوع الأخير لكنها أيضًا توقفت عن العلاج ولم تدخل المصحة، فظل ملفها مصنفًا بذاته وضعه في مكان خاص لأنه لا ينتمي للتصنيفات الأخرى.

أخذ الملف وبدأ يتصفح فيه ويقرأ الملاحظات التي كتبها ويحاول ترتيب الأفكار وفقًا لتسلسل الأحداث ويحاول تذكر بعضًا من حديثها معه.

أغلق الملف وأخذ الأوراق الخاصة بحنين، وقرر أن يعود إلى البيت ليفكر بطريقة أهدأ ويحاول أن يللم شتات ذاكرته بعض أن أربكها الخبر الذي سمعه، لم يتوقف لحظة عن التفكير

وهو في طريقه إلى البيت، كان يتنفس بصعوبة وكأن حجرًا ما يطبق على صدره أو غصة في حلقه.

وعلى جسر قصر النيل أوقف السيارة وترجل عنها وبدأ يتأمل الماء المتدفق أسفلهُ وسأل نفسه "لماذا نشوه الجمال ثم يعترينا الحزن عليه هل تسيطر علينا أرواح خبيثة أم نحن لم نعد أرواحًا طيبة ونسيطر بخبثنا على بعضنا البعض؟! ". نظر لمدخل الجسر وابتسم مستنكرًا وعاد مرة أخرى وانطلق بالسيارة إلى البيت.

جلس بجاد في غرفة مكتبه محاصر بالأوراق والتحقيقات وأقوال الشهود، الحقيقة مازالت غامضة، والطريق إليها لم تنكشف عنه العتمة بعد، بينما كان غارقًا في التفكير، دخل رئيسه وسأله:

- هل وصلت لشيء يا بجاد؟

ترك بجاد الورق من يده وأخذ نفسًا عميقًا ثم أجابه قائلاً:

- ليس بعد.

نظر إليه الرئيس متعجبًا ثم قال:

- لكن يبدو لي أن هناك شبهة انتحار.

نظر إليه وصمت لوهلة ثم قال بحماس:

- لا. ليس انتحارًا.

تعجب الرئيس للهجة بجاد ثم أمسك بورق القضية

الموضوع على المكتب أمامه، ثم قال:

- كيف ذلك؟! طبقًا لتقرير المعمل الجنائي؛ مسرح الجريمة لا يوجد به بصمات ولا آثار أحذية، بخلاف والدها وهي، كما أنه لا يوجد أي أثر لأي عنف تجاهها، سوى ضربة في رأسها، ومن خلال الوضع الذي وجد عليه جسدها والوسادة التي تحت قدميها؛ يمكن أن نرجح أنها قد تكون قد تعثرت فيها أو ربما فقدت وعيها وسقطت على رأسها.

- أليس هذا غريبًا؟! لم ينكر هشام في التحقيقات أنه قام بزيارة حنين.. كيف لا تظهر آثار أقدامه؟! صمت الرئيس لوهلة، وفكر قليلًا ثم قال:
- صدفة!

التف بجاد حول المكتب التقط منه الملف، وأخذ يقلب بين الأوراق وهو ينظر لكل ورقة نظرة خاطفة، ثم أمسك بواحدة منها ومد يده بها إليه قائلاً:

- تلك كانت أقوال صديقتها راندا، قالت إن حنين... المجني عليها كانت تحضر لمعرض ضخّم لمنتجاتها، وأنها اشتغلت كثيرًا عليه... أخبرني إذا كيف تقبل على الانتحار وهي ترتب لحدث مهم في مسيرتها المهنية؟!

كان الرئيس لا يزال يحدق في الورقة التي أعطاه إياها، ثم لفت نظره شيء في شهادة راندا، اقترب منه وأطلعته عليه قائلاً:
- لكنك أغفلت ما ذكرته عن هشام؛ قالت حريفًا "هشام

يحبها جدًا ولا يمكن أن يصيبها بأذى".

هم واقفًا، وأجابه بحدة:

- ربما لأنه يحبها وهي أرادت إنهاء العلاقة.

نظر إليه مندهشًا من عصبيته الزائدة ثم قال:

- ماذا بك يا بجاد، ما هذه العصبية؟!

- أعتذر منك، لم أقصد...

نهض الرئيس من مكانه قائلاً:

- يبدو أنك تأثرت بكلام والدها، وإصراره على اتهام

هشام، لكن ربما فقد الرجل عقله عندما شاهد ابنته غارقة في

دمائها، أو ربما لأنه يخشى على سمعته، أن تكون له ابنة شرعت

في أن تقتل نفسها.

نظر إليه وقطب حاجبيه وصمت لوهلة محاولاً فهم ما وراء

كلامه، ثم قال غاضباً:

- هل تقصد أن موقفي هذا خوفاً من نفوذ والدها أو تملقاً له.

- عفواً لم أقصد ذلك قط، لكن أخبرني ما سر إصرارك على

اتهام هشام؟

أشاح بجاد بوجهه صامتاً، ولم يجب على سؤال رئيسه، لم

ينتظر الرئيس طويلاً وأردف قائلاً:

- هذه القضية إذا تم تحويلها إلى المحكمة، هشام سيأخذ

براءة من الجلسة الأولى، فضلاً عن اعتقاله أربعة أيام رهن

التحقيق يعتبر تعسفًا منك.

نظر بجاد إليه وقال بهدوء:

- تقرير الطب الشرعي سيأتي قبل انتهاء المدة

- وماذا إن لم تجد فيه شيئًا؟!

ليلة الحادثة

القمر مكتمل في السماء كطبق فضي مستدير يلمع، حوله هالات من النور تتلاشى كلما ابتعدت عن محيطه، كان الظلام كاسي وأضواء السيارات فاقعة. عبرت راندا الجهة الأخرى من جسر قصر النيل وهي تلقي نظرة سريعة على الساعة التي تجاوزت الثامنة بدقائق قليلة؛ أخرجت من حقيبتها هاتفها المحمول ويبدو على وجهها التوتر الشديد وضعته على أذنها وانتظرت أن ينقطع الرنين وينطلق صوت هشام.

- هشام أخبرني هل انتهى الأمر؟

انطلق صوت هشام عبر الهاتف:

- نعم انتهى

- أريد أن أخبرك بشيء؛ حين حدثتني منذ دقائق، لكن

يبدو أن هناك خطبًا ما في الشبكة، لم يصلني صوتها....

جبل المقطم «سيدة المُلْك»

ما زالت دمعته حائرة بين السقوط والبقاء حبيسة جفونه التي أنهكها السهر والحزن والتعب، ينتظر أن تعود ابنته للحياة مرة أخرى، أن يسمع الكلمة التي حرم نفسه منها وهو يعتقد أن توفير حياة كريمة ومرفهة سيكون أفضل لها من البقاء جوارها وهي تحتاج أشياء ليست في استطاعته تأمينها.

لم يُسمح له بالدخول إلا مرة واحدة، لكنه لم يبرح مكانه أمام غرفة العناية المشددة، وحيداً، حزيناً، خائفاً، حانقاً، لا يجد من يواسيه.

الوقت كأنه لا يمر، يشعر أن عقارب الساعة تمردت وأعلنت عصيانها وإضرابها عن العمل؛ وكأنها لا تتحرك، حقاً الوقت كالسيف إن تمينا أن تقطعه، نهض مسرعاً وقسم ظهورنا بضربة واحدة.

كان يتذكر صوتها يأتي من بعيد وهي تحاول أن تستجدي وجوده وهو يماطل في العودة، نظراتها في كل وداع وكأنه الوداع الأول، اشتياقها وهي تستقبله. عناقها الواسع الفسيح الدافئ الذي يفيض حباً وحزناً وخوفاً شديداً من الفراق التالي.

وقف ينظر إليها من بعيد وهي ترقد على سريرها لا حراك بها، فجأة سقطت الدمعة العvisية المتحجرة في عينه، عندما ذكرته تلك الرقدة بما حدث في الماضي عندما وجدها مغمى عليها في الشرفة بجوار والدتها التي كانت تسبح في دماؤها بجوار ابنتها وقد تلون فستان الصغيرة باللون الأحمر.

كان القمر مكتملاً في السماء، ليلة خريفية هواؤها سخي، عاد إلى البيت الذي كان هادئاً على غير العادة، حيث تعود أن تستقبله حنين بالصراخ والضحكات المتقطعة والأحضان ثم تهمس في أذنه «اشتقت إليك».

في تلك الليلة لم يجد تلك الاحتفالات اليومية الصغيرة التي تبتدعها حنين. تعجب قليلاً في البداية ثم بدأ يخطو خطوات مترددة وئيدة وهو يناديها تارة وينادي والدتها تارة أخرى، لكن لم تكن هناك إجابة ممن يناديهما، بحث عنهما في البيت كله لكنه لم يجدهما، توجه إلى غرفة حنين، كانت الستائر تترنح في الهواء تذهب وتعود كالأرجوحة، اقترب أكثر من الشرفة؛ وجد زوجته تنام على بركة من الدماء وحنين بجوارها فاقدة لوعيها بالكامل وبجوارهما كوب مكسور. تجمد في مكانه للحظات ثم اقترب منهما وهو ما زال مصدوماً مبعثر الأفكار لا يعرف يفحص من منهما، وضع يده على رقبة حنين ليختبر النبض ثم بدأ يلكرها في وجنتيها لتستفيق، وعندما بدأت تستجيب نظر إلى

زوجته التي توقف صدرها عن الصعود والهبوط، وضع يده على مقدمة أنفها ليتأكد من أن أنفاسها قد انقطعت، جحظت عيناه وتكومت الدموع، يحاول أن يفتح فمه ليطلق الصرخة المتشبثة بحنجرتة لكنه لم يستطع.

بدأت الصغيرة تتمم بكلمات غير مفهومة وتحرك يديها في الهواء وكأنها تزيج شيئاً من أمامها، انتبه لها وأخذها بين ذراعيه وهو يسألها بخوف ودهشة عما حدث، لكنها لم تكن قد استردت وعيها بالكامل فلم تنطق بكلمة مفهومة، «ماما»، «الدم»، تلك كانت الكلمات التي همست بها عندما سألها لم تقل أكثر منهم، حتى أنها لم تتذكرهم عندما عادت لوعيها بالكامل وسألها، لم تتذكر إلا أنها كانت تجلس في الشرفة تنتظر الشوكولاتة الساخنة التي وعدتها بها والدتها ولا تتذكر ما حدث فيما بعد.

عندما جاء الطبيب لاستخراج شهادة الوفاة أخبره أن الوفاة كانت نتيجة اصطدام رأسها بالأرض ويبدو من كمية الدماء الموجودة أنها قد سقطت من وقت طويل.

مرت أيام طويلة وحين صامته لا تتحدث أبداً، الكوابيس لم تفارقها قط من ذلك اليوم، ورغم محاولات ومحاولات الأطباء مساعدتها، إلا أنها لم تتذكر ما حدث في تلك الليلة، أو ربما تذكرت وأخفت عن الجميع، وعندما وجد أن حالتها تسوء من الضغط المستمر عليها لتذكر ما حدث، قرر أن يشرع في العكس

ويحاول أن يمحو من ذاكرتها تلك الليلة، كان يظن أنه يفعل الصواب ولم يكن يعلم أنه يقامر على المجهول.

جلس شريف يدقق في ملف حنين وفي كل كلمة قالتها أو ملحوظة دونها عن ردود أفعالها، وفي مجموعة من الأوراق الملحقة بالملف كان قد كتب ملحوظات ومعلومات أخبره بها هشام في المقابلات التي أجراها معه قبل أن يلتقي بحنين، ولأنه لا يكتب الكثير من التفاصيل ويعتمد على ذاكرته والملحوظات التي يرى أنها مهمة وتساعد في التحليل أكثر من تدوين كل ما يقوله المريض، كان عليه أن يتذكر ما حدث وما قاله هشام قدر المستطاع. اتكأ على المقعد الكبير ذي الظهر العالي المطل على ليل القاهرة والنيل المتألق دائماً، بدأ يتذكر الحديث الذي دار بينه وبين هشام في أول لقاء لهما وسبب حضوره دون أن يجلب حنين معه.

- دكتور أنا لست متأكداً أن حنين مريضة وتحتاج علاجاً نفسياً، فضلت أن أتحدث معك أولاً لتخبرني إن كانت شكوكي في محلها أم لا.

- قد تكون على حق، إذا أخبرتني من البداية، لا تحك لي ما شاهدته ولفت انتباهك، أريدك أن تخبرني عن علاقتك بها من البداية وكيف تعرفت عليها وما هي طبيعة العلاقة بينكما.

انتاب هشام بعض القلق من كونه سيشارك رجلاً غريباً

تفاصيل دقيقة، ربما إن سأل عنها أقرب أصدقائه لكان لكمه في وجهه دون أن يرف له جفن، لكنه كان مضطراً لفعل ذلك أجابه وقد ظهر التوتر جلياً في صوته:

- أعتذر لك بشدة.... أنا... حنين...

لاحظ شريف توتر هشام وتردده في الحديث، نهض من خلف مكتبه وجلس على الكرسي المقابل لهشام وهو يلتقط هاتفه من فوق المكتب، ثم ألقى نظرة على المكالمات الفائتة، ثم قال له:

- تأكد أن كل ما سوف تخبرني به سيبقى بيننا فلا تتردد أبداً في أن تخبرني بكل شيء، أنا طبيب ومهنتي الأساسية بعد علاجهم هي المحافظة على أسرارهم، وإلا سيكون شرف مهنتي على المحك.

نظر هشام إلى الهاتف الذي بين يدي شريف ثم قال له متوجساً:

- هل ستقوم بتسجيل ما سأقوله؟

ابتسم شريف وهو يوجه شاشة الهاتف لهشام، ثم قال:

- تلك الأمور تحدث في الأفلام والمسلسلات فقط، ليس لها علاقة بالواقع، كما يمكن القول إنه أمر غير قانوني، حتى ما أقوم بتدوينه أثناء الحديث مع المرضى مجرد انطباعات وملاحظات على الحالة، لا أكتب ما يقولونه إلا إذا كان له علاقة مباشرة بتشخيص مرض ما.

- إذا أن تعتمد على ذاكرتك في المقام الأول، أليست تلك مغامرة؟

- الذاكرة القوية من المهارات التي يمكن تغذيتها بالتمرين، كأن تنظر مثلاً لمكان مدة محددة ثم تحاول تذكر ما رأيته وفي كل مرة تحاول تقلص المدة أو النظر لمكان أكثر ازدحاماً بالأغراض والتفاصيل، مؤكد رأيت ذلك في الأعمال الدرامية الخاصة بالمخابرات والجاسوسية.

ابتسم هشام وأوماً برأسه بالإيجاب، ثم أردف شريف قائلاً:
- يمكن أيضاً تنشيطها باستعمال معظم حواسك، كأن تردد ما تراه أو تكتب. وهكذا، وكلما تمتعت بذاكرة فطرية قوية كلما كان الأمر أيسر.

- وأنت من أي نوع؟

رفع شريف السبابة والوسطى، مبتسماً وكأنه يشير بالنصر إلى هشام ثم قال:
- الاثنان.

سأله هشام متعجباً:

- أرى أن ذلك لا يزعجك، ألم تصادف أوقاتاً أردت فيها أن تنسى أموراً لكن تلك الذاكرة القوية منعتك؟

- بالتأكيد، لكن أيضاً تصادفك أوقات تعتصر فيها عقلك لتذكر شيء ما وإن لم تفعل قد يصبح ذلك هاجساً لا يفارقك

لأيام، ولا أخفيك سرًا أنني بارع أيضًا في تجاهل الأمور التي أتذكرها وتزعجني.

ابتسم هشام وقال له:

- يا لك من محظوظ، أنا أغبطك

ضحك شريف بصوت عالٍ، وتناول دفتر الملاحظات وأمسك بالقلم، ثم قال لهشام مبتسمًا:

- هلا أنهينا جلستي وحدثتني عن صديقتك

نظر إليه هشام ولم يبرح التوتر ملامح وجهه، رغم كل ما قاله شريف لطمأنته وظلت أصابع يديه مشتبكة ببعضهم البعض، يحكمهم ببعض بين الحين لآخر. استمر شريف في النظر إليه وعلى وجهه ابتسامة ودودة ليحفزه على التحدث بلا قلق وخوف.

- أعتذر بشدة يا دكتور... أنا لا أشكك في أمانتك ولكن تلك الفتاة ابنة رجل أعمال مشهور وقد يعرضها ذلك لمشاكل كثيرة.

- تحدث بلا خوف أعدك بأن سرية ما سوف يدور بيننا سيبقى قيد السر والكتمان.

- في البداية أريد أن أسألك عن أمر ما، هل حقًا اكتمال القمر يؤثر بطريقة أو بأخرى على بعض الناس؟

هم شريف واقفًا واتجه نحو المكتبة وأمسك بكتاب عن تأثير الطبيعة وظواهرها على الحالات المزاجية للإنسان ثم قال:

- هناك دراسات كثيرة تمت عن هذا الموضوع وكان الدليل

العلمي الذي اعتمدوا عليه في هذا الأمر هو أن للقمر تأثيراً قطعياً على المسطحات المائية، وبما أن الإنسان ٨٠٪ من جسمه ماء بالتالي يكون للقمر تأثير علينا، لكن لم تثبت صحة تلك الفرضية.

- هذا يعني أن هذا الأمر غير صحيح؟!!

- علمياً لم تصل تلك الدراسات لحقائق علمية، لكن نفسياً الاعتقاد بوجود هذا الأمر سيجعل له تأثير قطعاً، عادة رؤية الأشياء كاملة لها تأثير على النفس، لكن يبقى هذا التأثير شخصي بحث ويتفاوت حسب الشخصيات ودرجات اتزانها واضطرابها؛ فالبعض في أوقات النشوة أو الغضب أو الحزن يقومون بأشياء غير معتادة وقد تصل للجنون في بعض الأوقات، لكن يمكنني أن أخبرك أن من واقع خبرتي أن تأثير النجوم والقمر، حتى المواسم يرتبط في أغلب الأوقات بحادثة أو خبرة سابقة للشخص مع تلك الظروف.

بدا على وجه هشام توتر أكثر من السابق وبدأت عيناه تتحرك بسرعة وتتجول في المكان كله ثم قال هامساً:

- إذاً قد يكون له تأثير بالفعل؟

عاد شريف وجلس على الكرسي المقابل لهشام مرة أخرى وانحنى للأمام قليلاً وهو يضع مرفقيه على ركبتيه مشبكاً أصابعه بعضهم البعض ثم قال:

- هشام! هلا حكيت لي من البداية كما طلبت منك دون أن

تصدر أحكامًا مسبقة؟

صمت هشام قليلًا، أخذ نفسًا عميقًا، كأن الكلام تحول إلى فرس عاص لا يرغب في الانطلاق، لم يتوقع قط أن الحديث سيكون بتلك الصعوبة.

وفي زحمة تلك الأفكار ومحاولات الدكتور شريف التنقيب في ذاكرته واستخراج ما في باطنها وترتيبها طبقًا لتسلسل حديث هشام الأول معه، اجتاحت نوبة فضول بأن يرى حنين في المشفى ويعرف تفاصيل ما حدث لها، وقد رأى أن له حقًا في ذلك، فهو في النهاية طبيبها النفسي وقد يكون وجوده مفيدًا.

نظر إلى الساعة ووجد أن الوقت مناسب، أخذ معطفه وخرج من العيادة وتوجه إلى المشفى التي ترقد فيه، قام ببعض الاتصالات ولحسن الحظ أن له طبيبًا صديقًا يدعى باسل يعمل في ذات المشفى وقد يساعده في مهمته تلك.

وعندما وصل أخبره صديقه الطبيب أن هناك أمرًا مهمًا يجب أن يخبره به، وهذا الأمر قد يجعل مهمته شبه مستحيلة.

كان هشام في مهجعه كطير وقع في براثن صياد ماهر، المكان بارد، الجدران تنشع رطوبة وبرودة، الوقت لا يمر؛ ففي بعض الأحيان الجهل بالوقت كمراقبة الساعة يُشعرنا بجمود الزمن، لم يكن يعلم كم عدد الساعات التي مضت عليه في هذا الجحر

المسكون بأكثر الناس وضاعة ودناءة ووحشية وإجرامًا.
اقترب منه رجل من بين هؤلاء الناس؛ مربوع القامة، وجهه
عبوس، عيناه ضيقتان وبهما حول واضح، له شارب كثيف ولحية
خفيفة، رسم على وجهه ابتسامة مصطنعة وقال له:

- ماذا جاء بك إلى هنا يا بني؟

رفع هشام عينيه قليلًا ولم يطل النظر وأشاح بوجهه بعيدًا
عن مرمى نظرات الرجل، وضع الرجل يده على فخذ هشام ثم
قال له:

- لا تظن أنني أتطفل عليك؛ أريد فقط أن نتبادل الهموم،
احك ربما الحديث يجعلك تشعر بأن الوقت يمر، الصمت يؤذي
صاحبه في هذه الحالة أكثر من الآخرين.

أزاح هشام يد الرجل عنه وهم واقفًا واتجه نحو شباك
صغير عالٍ يدخل خيط نور ضعيف للمكان، لم يتركه الرجل
وذهب صوبه وقال له:

- لا تكن عنيدًا، وأخبرني ربما كان في استطاعتي مساعدتك
لم ينظر إليه هشام وكأنه لا يسمع، اقترب الرجل منه أكثر
وربت على كتفه ثم قال:

- ليكن... ما رأيك أن أخبرك أنا بقصتي؟

نظر إليه هشام دون أن يظهر على وجهه تعبيرات موافقة
أو رفض لعرض الرجل أو حتى فضول لمعرفة قصته، استرسل

الرجل حديثه قائلاً بصوت خافت:

- عرفوا ما فعلت رغم أنني بذلت مآلاً وجهداً وخاطرت
لكي أخفي ما فعلت، لكن يبدو أن للحقيقة جنوداً تعرف
الأسرار مهما اعتقدنا أننا يمكننا طمرها أو كنا أكثر الناس
مراوغة وتحايلاً.

نظر إليه هشام وكأن الرجل نجح في لفت انتباهه وإثارة
فضوله، أردف الرجل حديثه قائلاً وهو يشير إلى مخدعه:
- هيا نجلس هناك، سوف أحكى لك..

كان باسل يشعر بالخرج الشديد من صديقه خاصة وأنها
المرّة الأولى التي يطلب منه شيئاً ولكن الأمر ليس بيده.
- لا أعلم ماذا أقول لك يا شريف لكن رؤيتها أمر شبه
مستحيل، ليس فقط بسبب الحادثة أو حالتها السيئة، لكن
والدها جعل الطابق كله وكأنه قلعة، الكل مستنفر، والمكان يعج
بالأمن الخاص، علاوة على رجال الأمن التابعين للشرطة.
ربت شريف على كتف باسل وهو يتسم ثم قال:
- لا عليك يا باسل، لا تعتذر، أعلم أن الأمر ليس بيدك.
- أشكرك لحسن ظنك.
- استأذن منك، لكن أرجوك إذا حدث تطور في حالتها
أخبرني.

- طبعًا سوف أفعل.

أدار شريف ظهره متوجهًا إلى المصعد ثم توقف فجأة والتفت لباسل مرة أخرى، ثم قال وقد زرت عيناه:

- هل والدها يأتي كثيرًا؟

- لا يتركها تقريبًا، هو عندها الآن.

- شكرًا يا باسل، سلام.

توجه شريف إلى الطابق الذي ترقد فيه حنين لم يكن في نيته استراق النظر على وضعها، لكنه كان يريد أن يتحدث مع والدها، كان بعينه تحدٍ وغضب شديد، وكلام يقف في حلقه كالشوكة، ورغم أنه يعلم أنه قد يكون في حالة سيئة إلا أنه لم يستطع أن يكبح غضبه ويلجم لسانه.

وجد الطابق فعلاً مستنفراً كما قال له باسل، رجال مصطفون على الجانبين من باب المصعد حتى غرفة حنين، عندما خرج من الباب أوقفه رجل منهم وسأله إلى أين وجهته، أخبره أنه يريد أن يخبر السيد إبراهيم والد حنين أمر مهم.

لم يسأله الرجل عن اسمه أو صفته وذهب مباشرة إلى والد حنين، وكأنه شعر أن هناك شيئاً خطيراً سيقوله، عاد الرجل بعد ثوان معدودة وخلفه والد حنين يسير بخطوات متسارعة وعلى وجهه قلق شديد، وكأن ملامحه قد قطبت ببعضها البعض، وعندما رأى شريف أمامه أراح قسماً وجهه وضغط على شفتيه

وبدا عليه الضجر.

ابتسم شريف وكأنه يستفزه ثم قال له:

- منذ لقائنا الأول والأخير قبل عامين كنت على يقين أننا

سنتقابل مرة أخرى رغم أنك عاملتني بمنتهى الغلظة كعدو لك.

- لكنني لا أريد أن أراك مرة أخرى.

- ليس كل ما نرغب فيه نلقاه.

- رجاءً لا تبدأ نوبة من نوبات الفلسفة خاصتك وأخبرني

ماذا تريد.

ابتسم شريف مرة أخرى ثم مد يده للأمام في إشارة للتحرك

للأمام قليلاً للابتعاد عن محيط رجاله، سار الاثنان في رواق ضيق

وفي نهايته شباك صغير. قلعة الجبل ومئذنة جامع محمد علي تظهران

من بعيد لكن بوضوح، قرص الشمس كان شديد الاحمرار وكأنها

بقعة من الدم في السماء، كانت على وشك الغروب وتختبئ خلف

الجبل، وقف شريف يتأمل المشهد ثم نظر إلى والد حنين وكأنه

ينبئه لمتابعة المنظر ثم أدار وجهه مرة أخرى قائلاً:

- كان الخليفة الفاطمي "أبو علي المنصور ابن العزيز" المعروف

بالحاكم بأمر الله رجلاً غريب الأطوار وفي أغلب الظن كان يعاني

من درجة عالية من درجات الفصام وهذا بطبيعة الحال يفسر

التصرفات غير المتسقة والتي تصل في بعض الأحيان إلى الجنون

لدرجة أن شقيقته الكبرى ست الملك لم تنج من جنونه واتهمها

في شرفها وممارسة الرزية ومضاجعة الخدام، وكان ذلك علانية، حتى أنه وصل به الأمر إلى حد إرسال القابلات جهازاً، ليتأكد من كونها حامل أم لا، رغم أنها كانت قد تجاوزت الخمسين عاماً في ذلك الوقت، فضلاً عن قتل الكثير من الأعيان بتهمة أنهم أعوان لها، من بينهم صديقه القاضي "مالك بن سعيد" وكانت هناك إشاعات تقول أن يذهب إلى قصر ست الملك ويخلو بها بحجة قراءة صفحات الدعوة الشيعية، تلك الإشاعة أوغرت صدره وأثارت شكوكه أكثر، فاخبره بأن أمره بقطع السنة الذين ثبت ترددهم لتلك الإشاعة، لكن القاضي لم يستطع تنفيذ هذا الأمر؛ فأمر الخليفة بقتل صديقه، هذا الرجل كان لديه هوس بالنجوم والفلك وحركة الكواكب وكان يخرج متنكراً في لباس الرهبان ويقضي ساعات طويلة هنا في جبل المقطم يطالع السماء والنجوم والقمر، في ليلة من الليالي خرج لممارسة عادته، وانتظر الجميع عودته لكنه لم يعد.

قال والد حنين وقد ضاق صدره من حديث شريف فقاطعه قائلاً:

- هل جئت إلى هنا لتعطني محاضرة في التاريخ أيها الطبيب؟! تجاهل شريف كلام الرجل واسترسل قائلاً:

- معظم الشواهد تقول إن تلك الشقيقة قتلتها، رأت أن إنقاذ سمعتها ومصير الدولة من ذاك المجنون المدمر لن يحدث إلا بقتل

أخيها وإخفائه من الوجود لأنه خطر عليها وعلى الجميع، يقال إنها أرسلت إلى الأمير "ابن دؤاس" أن يأتيها، ولكنه خاف على نفسه من مكائدها أو من عيون أخيها، وتردد ففوجئ بها تأتي إليه متنكرة وتدخل عليه وتطلب منه مساعدته في التخلص من أخيها، كان ظن الرجل في محله بعد أن نفذ لها ما طلبته فضحت أمره وأعلنته قاتل أخيها وتم قتله.

بدأت ترسم على وجه والد حنين بعض تعبيرات الاهتمام والانتباه لحديث شريف، لكنه حاول أن يتجاهل حديثه قائلاً:
- يبدو أنك أخطأت الطريق وجئت إلى هنا

تقدم خطوتين إلى الأمام ليصبح في مرمى بصر شريف تماماً ثم قال له:

- هنا مشفى وليست مدرسة أو قاعة محاضرات، والتي ترقد في الداخل ابنتي، إذا سمحت اختف عن بصري قبل أن تتسبب في أذى للعاملين هنا.

أدار ظهره ليمضي في طريقه، وقبل أن يبتعد أوقفه شريف قائلاً:

- ألم تفهم بعد أن هذا تماماً ما فعلته بابتك؟

نظر إليه والغضب والحنق يملآن عينيه وقال:

- ماذا تقول أيها الطبيب المتطفل؟

زادت حدة وقسوة نبرة صوت شريف وقال:

- أنت السبب فيما حدث لها، ابنتك يا سيد إبراهيم كانت

مريضة جدًا كانت تحتاج لعلاج نفسي، وقد أخبرتك في حينها أنها عرضة لإيذاء نفسها بخطورة بالغة، لكنك جنت، ارتعبت على سلطتك وسمعتك ورفضت أن تستكمل علاجها في مصحة نفسية.

- لست مجبرًا أبدًا أن استمع لمهاراتك..

أدار ظهره واتجه إلى رجاله المرابطين أمام الردهة التي تقع في نهايتها الغرفة التي ترقد فيها حنين، وقد بدأوا يتأهبون بعد أن شعروا بالمشاحنة الدائرة بين رب عملهم ومن يتحدث معه، بعد أن حذر شريف من رؤيته في المشفى مرة أخرى، وقف مع رجاله ينبههم ألا يسمحوا بوصول هذا الرجل إلى هذا المكان مرة أخرى.

دخل شريف المصعد وهو يحاول أن يحافظ على ثباته الانفعالي قدر المستطاع. وخرج من المشفى بعد أن عاتبه صديقه على ما فعله، ونبهه ألا يأتي مرة أخرى. اعتذر له ورحل دون أن تخرج من بين شفتيه ما أراد إخباره به، لكن كان في عينيه تصميم على أن يخبره به ولكن في وقت لاحق.

ركب شريف سيارته ورحل وهو ما زال يفكر في الخطوات التالية التي رأى أنه يستوجب عليه أن يقوم بها، لكن بحذر.

اتكأ الرجل على الجدار وأشعل سيجارة، نفث الدخان

ونظر إليه وهو يتصاعد في الهواء ثم قال:

- أنا اسمي "مصطفى البيومي" أبي كان أشهر حداد في السبتية "الحاج عبد الرحمن البيومي"، ظل يتنقل ويعمل بين ورشة وأخرى واستطاع أن يكون ثورة كبيرة جعلته يمتلك أكبر ورشة في تلك المنطقة، كانت الشركات الكبيرة تعتمد عليه في أهم مشروعاتها لكفاءته ودقة مواعيده، كان يمكنه أن يقيم ويقعد السبتية كلها بكلمة منه على ساق واحد، تعلمت منه كل شيء، أحببت عمله لدرجة أنني تركت الدراسة بإرادتي لكي أصبح مثله، استطعنا أن نكبر أعمالنا وتجارتنا، تزوجت وأصبح لي أولاد وبنات، لكنني لم اتصل أو اتكاسل في مساندة أبي ومساعدته في تربية إخوتي، كان عندي أخ يصغرنى بعشرة أعوام وأربع بنات تتفاوت أعمارهم بين العشرين والخمسة عشر، بعد أن رحل والدي أصبحت أنا الأخ والأب، لم أبتلع يوماً قطعة خبز من حقهم ولم أبخل عليهم بوقتي أو رعايتي وطبعاً بالمال. بعد رحيل والدي بعامين تعرف أخي على شياطين من الإنس أفسدوه، وأبلوه بالسهر والشرب والمخدرات، للأسف أخفوا البنات عني التغيرات التي حدثت له خوفاً عليه، وعندما عرفت كان الوقت قد تأخر كثيراً، حاولت معه بكل الطرق أن أرجعه عن هذا الطريق لكنني لم أستطع، أصبح حاد الطباع، فظاً وغليظاً حتى مع إخوته البنات، كان يسيء معاملتهن ويضربهن

إن امتنع عن إعطائه المال الذي يريده لدرجة أنه رفع السكين على واحدة منهن، ولولا أنني دخلت في الوقت المناسب لكان أزهق روح تلك المسكينة.

أودعته في مصحات نفسية، وفي كل مرة كان يخرج أسوأ من ذي قبل. تأخرت حالته وتعمدت، انهار تمامًا، أصبح حطامًا، تبرأت منه وحاولت إخراجه من حياتنا ونسيانه، لكنه لم ينسنا، وظل يطاردنا بسوئه ومشاكله، لدرجة أنني أرشدت عنه الشرطة ذات مرة، لكن من كانوا يستفيدون منه لم يتركوه.

نظر إليه هشام وقد اتسعت عيناه لرهبة ما سمع وأدار جسده إليه بعد أن كان ينظر إليه خلسة بين الحين والآخر وهو يتحدث، استرسل الرجل حديثه قائلاً:

- احترقت روحي كثيرًا مرت عليّ الليالي وأنا اتقلب على الجمر، غاضبًا عليه تارة، وحزين عليه تارة، ومشفق على حالته تارة أخرى، وتمنيت بيني وبين نفسي بعد أن أدركت أنه يسلك طرق الهلاك لا محالة، وأنه غرق في الوحل حتى عنقه؛ أن يموت. نظر إليه هشام مندهشًا ثم قال معاتبًا ومستنكرًا: -

- تمنيت الموت لأخيكَ!

نظر إليه الرجل وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة صغيرة، وكأنه ممتن أنه أخيرًا وجد من يستمع إليه وأن صوته لم يذهب سدى وكان له صدى في آذان هشام أجابه قائلاً:

- هو كان في عداد الأموات يا رجل، موته كان سيكون راحة له وحماية لإخوته، ثلاثة أعوام ونحن نتجرع هذا العذاب رشفة رشفة يوماً بعد يوم. ساءت سمعتنا وركدت تجارتنا، ونفر الرجال من البنات، بالكاد استطعت أن أعوض ما فسد في العمل بعد أن أهملته لفترة طويلة بسبب أخي، لكن الحبال عادت مرة أخرى للالتفاف حول عنقي، وأذئاب الخطيئة التي أبعدتها عني بصعوبة أمسكت بزمام أمري مرة أخرى، عندما جاء أخي يطالبني بحقه في الميراث، بتحريض من أصدقاء السوء، وهدد برفع دعوة قضائية ضدي، لأخذ حقه.

عقد هشام حاجبيه متعجباً ثم قال:

- قلت إنك اعتبرته في عداد الأموات، لماذا لم تعطه ماله وتخلص منه للأبد؟!

- كان من الصعب أن أعطيه ما جمعته بالتعب والمشقة والعرق ليفنيه في هذا السم، كما أنه كان سيعود مرة أخرى بعد أن يقضي على ماله يطلب مالاً من جديد.

- ماذا فعلت إذا؟

- قررت أن أريحه وأريح من تأذوا منه

نظر إليه هشام وقد بدا على تعبيرات وجهه أنه فهم ما سيقوله الرجل، رفع حاجبيه سائلاً:

- قتلته؟!

نظر الرجل في الأرض لوهلة، ثم نظر إلى هشام مرة أخرى وقال:
- الحلاق يا أستاذ لا يمكنه أن يهذب شعره لكن يمكنه أن يقتلعه من جذوره إن أراد.

هم هشام واقفاً وقد ارتفع صوته قليلاً وهو يقول:
- قتلت أخيك بيديك؟!!

أمسك الرجل يد هشام وضغط عليه ليجلس مرة أخرى
ثم قال:

- لم يكن أمامي حل آخر خفت عليه أن يتعذب أكثر، خفت على إخوتي البنات، على مالنا وحياتنا وتجارتنا، كنت أراه جريحاً يتوجع من الألم وبين يدي رصاصة الرحمة.

صمت لوهلة ونظر إلى سماء الغرفة وقد غزت الدموع مقلتيه، ثم استطرد قائلاً:

- هل تظن أنني لم أحزن؟! أنه أخي الصغير، قطعة من روحي، كبدي، كنت أحبه أكثر من أولادي.

لم يرق قلب هشام بعد أن رأى دموع الرجل قد تجمعت في مقلتيه وهو يحاول أن يسيطر عليهم، ربت هشام على كتفه ثم قال:
- وماذا جاء بك إلى هنا؟ هل اعترفت؟

ارتسمت على وجه الرجل ابتسامة سخرية ثم قال:

- يبدو أن التعليم مهم يا أخي، بين ليلة وضحاها عرفوا أنني الفاعل.

- كيف ذلك؟

- حدثته في التليفون وذهبت إليه وأعطيته جرعة زائدة من الهيروين، لم أمح بصمات أصابعي من الحقنة التي غرستها في وريده، لأن الجميع يعرفون ما بيني وبينه ولأنهم وجدوا أنني آخر من حدثته، كنت أول المشتبه بهم.

ترنحت عينا هشام يميناً ويساراً واستغرقه التفكير في الأمر فقاطع مصطفى تفكيره وأوضح له أكثر:

- قيل لي إنهم وجدوا بصمات شخصاً آخر على الحقنة قال هذا الكلام وكأنه يردده دون أن يفهمه ثم نظر إلى النافذة الصغيرة وأخذ نفساً عميقاً، وتوجه إليها في خطى وثيدة وهو يقول:

- لكنني ما زلت أشعر أنني فعلت الصواب
ثم نظر إلى هشام مرة أخرى وهو يبتسم قائلاً:
- عين الصواب.

ظل هشام في مكانه ينظر للرجل من بعيد ويفكر في كلامه، ثم ذهب إلى مرقده وكان جسده قد تخدر، استلقى على السرير وأغمض عينيه وأخذ نفساً عميقاً وحبسه قليلاً ثم أخرجه، أما هشام فكان قد غاب في حالة الدهشة والعجب قادتة إلى الشرود، وارتسمت على ملامح وجهه الهادئة حزناً عميقاً ووجع أطبق على أنفاسه.

ليلة الحادثة

ركب والد حنين سيارته السوداء الفارهة وتحرك بها في اتجاه طريق «صلاح سالم»، الغضب والحنق قد ملأ وجهه، يدق على مقود السيارة بين الحين والآخر من فرط غيظه، ثم أمسك بهاتفه، انطلق صوت امرأة يبدو من صوتها أنها طاعنة في السن.

- ألو. ماذا فعلت؟

- أنا في الطريق... سأنتهي اليوم ما حدثتكَ عنه بشأن حنين

- أتمنى أن تفعل.

- سوف أفعل.

أنهى المكالمة وعيناه متيقظة موجهة تمامًا للطريق يملأهم العزم والإصرار على فعل شيء ما، كان يصعد طريق جبل المقطم الملتوي بحرص، وكلما تصاعد الطريق لأعلى كانت القلعة تظهر من خلفه متباهية وذات مهابة لا ريب فيها، أنوارها تلمع من بعيد كالنجوم في سماء ليل مظلم، وماذن جامع محمد على سامقة منتصبة في الهواء كسيوف المحاربين العرب عندما تدق طبول الحرب ويبدأون الهجوم على الخصوم.

باب زويلة

«مدخلان لباب واحد»

عاد شريف إلى عيادته، ألقى معطفه على المقعد وجلس على المقعد الآخر وأراح ظهره، كان قد تملكه الغيظ والاشمئزاز من ذلك الرجل الأحمق الذي لم يستطع تحمل مسؤولية ابتته، بل دفعها دفعًا للسقوط والمرض وأخيرًا الموت وكان لديه قدر كاف، لا يفيض من الثقة والوقاحة والحماسة في أن يأتيها ويبكيها وهي طريحة الفراش.

نهض من المقعد وبدأ يتحرك في خطوات وئيدة ذهابًا وإيابًا وهو عاقد يديه خلف ظهره، ألقى نظرة على المكتب ليرى ملف حنين الذي لم يكمله بعد. جلس على مقعده خلف المكتب وأمسك بالملف وبدأ يقرأ الملاحظات التي كتبها أثناء حديث هشام عن حنين للمرة الأولى وكيف تعرف بها، ليتذكر رويدًا رويدًا ما قاله لربما يجد سبيلًا يدحض به إحساسه ببراءة هشام ويهدم ولو حجرًا واحدًا من باب اليقين الذي كان مدخلًا ووصلاً قويًا بينه وبين حنين فيما بعد، ويضع مكانه شكًا لا يقطعه اليقين لأنه كان على إيمان تام أن النفس البشرية ليست جديرة بالثقة التامة.

لم يكن لقائي بحنين مثيرًا ولا يمكن أن أقول إن القدر كان بطلًا في تلك القصة، كان اللقاء سلسًا وبسيطًا، طلب مني صديقي أن أعطني بكلبه لفترة، لأنه سيسافر مع والدته في رحلة علاج لفرنسا، فوافقت، في يوم من الأيام أخذت الكلب في نزهة صغيرة ودخلنا حديقة خُصص منها جزء للحيوانات. رأيته هناك، كانت جالسة بين الأشجار ترتدي فستانًا ورديًا يشبه فساتين الأطفال، شعرها كان مجدولًا وشريطة وردية قد جدلتها مع شعرها، بدت كأنها جزء من الطبيعة، من المكان والألوان، حتى حركتها كانت رقيقة كزهرة يداعبها النسيم بعفوية، كانت تقرأ كتابًا وكلما اقترب منها كلب أو قطة كانت تداعبه بحنان ورقة.

أحسست برغبة ملحة في أن أراها عن قرب، وإن سمحت الظروف أحدثها، فتحايلت على «بينجو» وألقيت لعبته بالقرب منها ليذهب عندها، ربما تداعبه، لكن لم يحدث ذلك، كررت تلك الحيلة أكثر من مرة لكنها لم تفعل، وفي المرة الأخيرة قررت أن أذهب إليه عندما يهرول إلى لعبته والتقطه من عندها وأراها. وفعلت ذلك، وبدأت أداعبه أمامها لأجذب نظرها، لكنها لم تكثر، رأيت على وجهها مسحة من الحزن، حتى أنني شعرت أنها شاردة ولا تقرأ، أو ربما استغرقها الكتاب لدرجة جعلتني أشعر بذلك، لا أعلم! وتكرر ذهابي إلى الحديقة وتعددت الحيل، لكن لم تنجح أيًا منهم، وعندما كنت على شفا اليأس؛ حدثتني.

قالت إنها فهمت إنني أحاول لفت انتباهها وأني أرغب في أن أكلمها ولذلك تجاهلت كل المحاولات، لكن إصراري جعلها تطمئن أنني على الأقل لا أرغب في مغازلة أي فتاة وإلا كنت حاولت مع الأخريات الموجودات في الحديقة.

مر أسبوعان، تعددت فيهما اللقاءات والمكالمات التليفونية، ثم فجأة ودون سابق إشارة اختفت لثلاثة أيام، لم تجب على الهاتف ولم تذهب للحديقة ولا أي مكان من الأماكن التي اعتدنا اللقاء فيها.

بعد ذلك تقابلنا وأخبرتني أنها كانت مريضة وحرارتها مرتفعة، وكانت نائمة معظم الوقت، لكن هذا الأمر تكرر أكثر من مرة وفي كل مرة تبرر غيابها بمبررات أسخف من تلك التي سلفتها، الأمر الذي لفت انتباهي أن غيابها هذا كان يحدث كل شهر تقريباً، كل الأسباب النسائية وما على شاكلتها جاءت في بالي، لكن ما عرفته فيما بعد لم يمرق في خاطري ولو فكرة على سبيل السخرية.

فجأة جحظت عينا شريف وتوقف عن القراءة، وكأنه انتبه أو تذكر شيئاً مهماً، أمسك بالرزنامة ونظر فيها ثم رفع عينه عنها وقد لاحظت في خاطره فكرة، نظر أمامه، حرك عينيه يميناً ويساراً، ثم عقد حاجبيه وهو يردد «معقول؟!»، وقبل أن يستمر في التفكير واستدعاء حديث هشام عن حنين، دق جرس هاتفه

- فأجاب على الاتصال، انطلق صوت باسل من الهاتف قائلاً:
- مساء الخير يا شريف.
 - مساء الخير يا باسل، كيف حالك؟
 - أنا بخير.. أريد أن أتحدث معك إن كنت متفرغاً.
 - بكل سرور، أنا في العيادة، إن كان يناسبك أن تأتي إليّ فلتأت.. وإن أردت يمكننا..
 - قاطععه باسل قائلاً:
 - لا.. يسعدني أن التقى بك في عيادتك.. أنا لم أرها قط.
 - وأنا يشرفني ذلك.. في انتظارك.

كانت القهوة على مكتب بجاد قد داهمتها البرودة وتوارت رغوتها من فرط انتظارها لشفاه متشوقة أن ترشفها، لكن بجاد انشغل بملف قضية حنين الذي ما زال يبحث فيه عن ثغرة تدين هشام، كان يقرأ إجراءات إلقاء القبض عليه ويدقق النظر في الأدلة المرسلة مع أقوال الشهود وتحريات المباحث وأقوال هشام بكل يقظة وانتباه؛ وكانت عيناه تتعلق بكل سطر يقرأه.

لم يذكر هشام كلمة واحدة تدينه حتى أنه لم ينكر أنه زارها تلك الليلة، كان مدرّكاً أن ما أخبره به رئيسه في أمر اعتقال هشام يحالفه الكثير من الحق، لكن كان هناك صوت داخلي لا يتوقف يخبره أن هشام قد فعلها، بينما كان بجاد غارقاً فيما يقرأه ويرصده؛

دخل زميله حازم، كان بجاد على وشك إشعال سيجارة، دخل حازم مبتسمًا وأغلق الباب قائلاً:

- يبدو أن قرار الإقلاع عن التدخين لم يكن جادًا.

نظر إليه بجاد وأجابه على استحياء قائلاً:

- لا... الأمر ليس كما تظن، لم يعد التدخين بالنسبة شغفًا

كما كان في السابق، إنها واحدة لا أكثر.

جلس حازم على المقعد المقابل للمكتب وأخذ نفسًا عميقًا

ثم قال:

- أخشى عليك من توابع تلك الواحدة.

نظر بجاد لملف حنين المفتوح أمامه، ثم نظر إلى حازم وأجابه

وقد بدا في صوته بعض الارتباك:

- ماذا تقصد، بالواحدة؟!

انتبه حازم لتوتره ثم أشر بيده للسيجارة قائلاً:

- تلك الواحدة! أقصد السيجارة.

هدأ بجاد قليلًا ثم قال:

- لا تخف لن أعود.

اعتدل حازم في جلسته ثم قال:

- أخشى أن تعيدك لما تخليت عنه، تعلم ما أقصد.

- نعم.. تقصد الشرب.

نهض بجاد من مقعده خلف المكتب وجلس على الكرسي

المقابل لكرسي حازم وأردف قائلاً:

- أنت تعلم أنني لن أعود لمثل هذه الأمور، كانت فترة صعبة في حياتي ومررت وتأكد أنها لن تعود.

- أعلم نعم إنها كانت فترة صعبة، وموت والدتك كان له تأثير كبير في ذلك. أرجو ألا تأخذ كلامي أنه توجيه أو تنظير، أنا مؤمن أن بداخل كل واحدٍ منا طريقان أحدهما جيد وآخر سيئ، ونحن نحاول بكل جهد أن ننحاز للطريق الصحيح، لكن قد يتقاطع الطريقان في بعض الأوقات، ولا مفر لنا من ارتكاب بعض الأخطاء.

ابتسم بجاد وربت على ركة حازم بقوة، ثم قال:

- لا تقلق، واعلم أنه لولا تلك الفترة التي سلكت فيها الطريق الخطأ؛ لم أكن لأنتبه للطريق الصحيح وأجد نفسي، تلك النفس غير المبعثرة.

ابتسم حازم ثم سأله:

- أخبرني إذا؛ كيف تسير أمور القضية؟ هل وجدت شيئاً؟
- ليس بعد، هناك بعض الأمور التي أستشعرها، لكنني لا أملك الدليل.

عقد حازم حاجبيه ثم قال:

- لم أفهم!

- مثلاً، تقرير الطب الشرعي أشار إلى وجود آثار قديمة

لجروح سطحية في ذراع المجني عليها الأيسر، كلها غير مميتة، ولا يوجد قطع واحد في ذراعها الأيمن بخلاف قطع ليلة الحادثة.
- ربما أقدمت على الانتحار في الماضي، لكنها لم تجرؤ على فعل ذلك.

- وما قولك في عدم وجود أثر واحد لوجود هشام عندها في تلك الليلة.

- ماذا تريد أن تقول؟

- ذكر "خير" حارس البناية في التحقيقات أنه يسافر كل شهر قنا ليرى أهله تحديدًا آخر خميس في كل الشهر، وبالتأكيد هشام يعلم ذلك بحكم علاقته بالمجني عليها، لكن حظه السيئ أن خير في تلك الليلة لم يلحق القطار فشاهده وهو يخرج من البناية، وعندما رآه هشام فسدت خطة طمس آثار وجوده في البيت فاضطر أن يصرح بزيارته لها.

نظر حازم إليه وظل يفكر قليلًا فيما قاله بجاد، ولم يبد أي تعليق، فأردف هشام قائلاً:

- أعلم أن ذلك ليس دليلًا ماديًا، لكن كل تلك الأشياء تربك تفكيري، تجعلني أغض الطرف عن الأدلة الحتمية المؤكدة.
- ربما أنت على الدرب الصحيح، لكن للأسف ما قلته لا يدحض احتمالية انتحارها، بل هو الاحتمال الأرجح؛ محاولات فاشلة في الماضي ما زالت آثارها على ذراعها، لا يوجد مظاهر

عنف على جسدها، ولا مظاهر حدوث شجار بينهما أو مطاردة بينهم في المنزل، حتى ضربة الرأس رجح الأطباء أنها نتيجة سقوطها مباشرة على رأسها.

ضم بجاد شفتيه ونكس ناظريه لأسفل، ثم أخذ نفساً عميقاً وقال محبطاً:

- أعلم ذلك يا حازم.

ربت حازم على ركة بجاد ثم قال:

- كلامي ليس معناه أن تتجاهل ما يدور في بالك، اتبع قلبك، أحياناً كون القلب أصدق وأرشد من العقل.

هم حازم واقفاً والتفت إلى باب الغرفة ليخرج، ثم نظر إلى بجاد مرة أخرى نظرة ودودة، ثم قال:

- بجاد، لقد تجاوزت فترة صعبة، رجاء لا تعد للوراء، والدتك لن يسرها ذلك، خصوصاً إن كان ذلك بسبب حزنك عليها.

خرج حازم من المكتب، لم يتحرك بجاد من مكانه وشرد قليلاً في تلك الفترة التي فقد فيها السيطرة على نفسه بعد موت والدته والأيام التي كان يغلق فيها على نفسه ويحتسي الخمر كل ليلة ليتمكن من النوم في البيت الذي لم يتخل عن والدته رغم أنها تخلت عنه وتوارت تحت التراب، أخذ نفساً عميقاً ثم همس بينه وبين نفسه قائلاً "لم تكن والدتي فقط السبب يا حازم".

أخذ نفسًا عميقًا وأغمض عينيه ثم عاد مرة أخرى يدقق في ملف حنين، فجأة عقد حاجبيه ورفع عينيه عن الملف وشرّد قليلاً في إحدى الصور المرفقة مع الملف، فبدأ يقلب بين الصفحات واحدة تلو الأخرى ثم يعود، وينظر مرة أخرى للأدلة التابعة للملف وتأرجحت الأفكار والتساؤلات في رأسه، أمسك بالهاتف وتحدث إلى المعمل الجنائي وتأكد من عدم وجود أدلة لم يتم إرسالها. أخذ الملف والأدلة وذهب إلى رئيسه.

طرق الباب ودخل مسرعاً قائلاً:

- يبدو لي أن هناك شيئاً خطأ في الأدلة

رفع رئيسه عينيه ليراه ثم خلع نظارته قائلاً:

- أتمنى أن يكون أمراً مهماً حقاً

- نعم سيدي، انظر إلى هذه الصورة

أمسك بالصورة ودقق النظر فيها، ثم لوح بها إلى بجاد وسأله:

- إنها صورة لحمام غرفة حنين، ما بها؟

مال بجاد قليلاً للأمام، واستند على يده اليسرى التي

وضعها على المكتب، ثم أشار بإصبعه على الصورة قائلاً:

- انظر سيادتك إلى هذا الملقط الموجود هنا.

نظر مرة أخرى في الصورة ثم قال بنبرة تحثه على التحدث

مباشرة:

- أراه، ماذا تقصد أن تقول يا بجاد؟

- هذا هو الموضوع، الأصدقاء من المعمل الجنائي لم يرسلوا دليلاً واحداً خرج من الحمام، حتى أنهم لم يرفقوا هذا الملقط. فكر رئيسه قليلاً، ثم نظر إليه، وقبل أن يعلق على كلامه، أردف بجاد قائلاً:

- هذا الملقط ليس ملقطاً للتزين، أنه يستخدم في التقاط الخرز والفصوص والحلقات وما شابه، أي أنه يخص شغلها؛ ما بال وجوده في الحمام؟! أظن أن هناك شيئاً آخر سيخرج من الحمام. صمت لوهلة وتأمل حديث بجاد، ثم نظر مرة أخرى في الصورة، ونظر في الفراغ أمامه، ثم نظر إليه قائلاً:

- قد تكون على حق.

- ولذلك أريد أن أفتش البيت مرة أخرى ومتأكد أني سأجد دليلاً وليس قرينة.

فكر قليلاً ثم قال:

- أفعل ما شئت لكن تذكر أنت لا تملك إلا أربعة أيام لتجد دليلاً قاطعاً لاستمرار اعتقال هشام.

ابتسم على استحياء وهو يؤكد له أنه سيجد شيئاً مهماً، خرج من مكتب الرئيس وعيناه تملؤهما عزيمة وثقة بأنه يسير في الطريق الصحيح.

دخل باسل العيادة وصافح شريف بحرارة وهو يلقي نظرات متفحصة على الجدران والأثاث والديكور الهادئ وابتسم قائلاً:

- عيادتك لطيفة وألوانها هادئة.. تشبهك تمامًا.

- هل هذا جيد أم سيئ؟

نظر إليه، وسكت لوهلة وقد اختفت الابتسامة من وجهه وحل مكانها بعض الحيرة ثم قال:

- لا أعلم! حقًا لا أعلم.. عندما يرتبط ما يخصك بأناس آخرين

هل يجب أن تتصرف حسب ما يرضيك أم ما يرضي الآخرين!

ضحك شريف وربت على كتفه ثم قال:

- يومًا بعد يوم يتأكد لي نظرتي في أنك ضللت طريقك في

اختيار تخصصك، صدقني يا صاح الجراحة لا تناسبك أبدًا، أنت

رجل عميق تمامًا، وتقف كثيرًا أمام التفاصيل الصغيرة.

ابتسم باسل ثم قال:

- وهذا ما سأحدث فيه معك، ماذا حدث مع والد حنين؟

- سأصنع لك فنجان قهوة متزن نفسيًا وأحكي لك كل

شيء أنا أيضًا كنت بحاجة إليك.

أحضر شريف فنجاني القهوة ووضعها على الطاولة التي

توسط كرسيين مطلين على النيل الذي تلالأت مياهه بالأنوار

المحازية له من الجانبين وكأنها انسكبت بداخله بهدوء وانعجنت

بجزئيات الماء بسلاسة، كان باسل يتفقد الكتب التي رتبها شريف بعناية في مكتبته الواسعة، الابتسامة لم تفارق وجهه كلما أمسك بكتاب وتصفحه بسرعة، انتقلت الابتسامة إلى وجه شريف وهو يسأله:

- علام تبتسم؟

أجابه والابتسامة لم تبرح شفثفه.

- مكتبتك تعج بكتب الآثار والتاريخ، بالكاد أعثر على كتاب طبي أو علمي.

- هل كنت تبحث عن كتاب محدد؟

- لا، لكنني فقط أسجل اندهاشي، كنت تقول منذ دقائق أنني ضللت الطريق بتخصصي في الجراحة، أعتقد أنك ضللت الطريق كونك أصبحت طبيباً بالأساس.

ضحك الاثنان وهما يجلسان على الكرسيين المطلين على النيل ثم قال شريف:

- ربما سأزيد دهشتك إن قلت لك أن هذه الكتب ساعدتني في عملي أكثر من الكتب العلمية والطبية، لأنني مؤمن بحقيقة أن التاريخ يعيد نفسه.

- لم أفهم!

- تخيل أن لديك تاريخ المريض، وتتعرف على سلوكه، وانفعالاته وتأثير اضطراباته النفسية على اتجاهاته وأفعاله، ثم

تصل إلى نتائج حتمية وليس فرضيات، لأنها حدثت بالفعل.

رفع باسل حاجبيه مندهشاً ثم قال:

- منطق جدير بالاحترام.

صمت الاثنان لوهلة، ثم مد باسل يده وأخذ فنجان القهوة

ثم قال:

- هلا تخبرني ماذا حدث اليوم بينك وبين والد حنين؟ ولما

كل هذا العداء؟!

وضع شريف فنجان قهوته وأراح ظهره على المقعد ثم قال:

- أولاً عليك أن تعدني أن ما سأقوله لك سيبقى بيننا مهما

حدث، حتى والد حنين.

- بالتأكيد.

- الحكاية بدأت منذ أن جاء هشام المتهم بقتل حنين وأخبرني

أنه يحب فتاة ويشك أنها مريضة نفسية.

وضع باسل الفنجان من يده وعقد حاجبيه وسأله:

- حنين؟!

وصل بجاد مسرح الجريمة، كان لونه مخطوفاً وكأن ذئباً

مفترساً على وشك الفتك به، من اللحظة الأولى التي وطأت فيها

قدماه المكان انتابه شعور غريب بالخوف والفرع، أصوات صراخ

مقطعة واستغاثات مضطربة ومتداخلة، كاد ينهار، بدأ يسأل

نفسه عن أي شيء يبحث؟! فهو في قرارة نفسه يعلم أن هدفه هو أن يجد دليلاً يدين به هشام وحسب، ويسمح له بالتحفظ عليه، وأن ما قاله لرئيس النيابة لم يكن إلا فرصة أخرى يعطيها للصوت الذي يجهر بداخله بأن حنين لم تنتحر وأن هشام مذنب، فجأة رأى الدماء تسرح تحت قدميه، والبقع التي تناثرت على الأرض والبساط الصغير الذي يتوسط الغرفة وكأنها طازجة لم يمر عليها دقائق، تتحرك في مسارها وكأنها أريقت للتو، دقائق قلبه بدأت تعلو وتتسارع، أصوات الصراخ تتصاعد، وهمهمات تنطق باسمه وتقول أشياء لا يفسرها، بدأ يرى أفراد فريق التحقيق والمباحث يلتفون حوله، كل فرد منهم يمسك بشيء يتفقدته، حنين ملقاة على الأرض شاحبة، كامدة النظر، وقد تصفت من الدماء التي ذرفت منها، بدأ يقترب منها بخطى وثيدة، كانت ترتدي قلادة في رقبتها علامة استفهام الجزء الأعلى منها رُسم على شكل قلب، عقد حاجبيه ونظر إليها بتمعن، بدأ ينظر حوله من جديد، لم يجد أحداً، تجمد في مكانه للحظات وكأن الخيال والواقع قد تداخلا معاً بصورة عجيبة، لدرجة أنه اندهش عندما نظر في الأرض مرة أخرى لم يجد حنين راقدة.

دخل الحمام وفتح صنوبر الماء وفتح كفيه ليملاهما بالماء ثم ألقاه على وجهه. فجأة شاهد حنين في المرأة وخيل إليه أنها تبسم، قطرات من الماء تتساقط منه وقد اختلطت بعرقه الذي غزا جسده

كله، التفت بسرعة لكنه لم ير شيئاً، تجمد الدم في جسده وكأنه قابع في لوح من الثلج، ورغم ذلك ما زال عرقه يتساقط بغزارة، كان قد ترك الماء وامتلاً الحوض، أغلق الصنبور لكن الماء لم يجر، أزاح سدادة الحوض قليلاً لتسمح بجريان الماء، لمحت عيناه بريقاً، أزال السدادة تماماً ونظر جيداً ثم جلب الملقط بمنديل ورق لكي لا يطمس من عليه، وحاول التقاط هذا الشيء ونجح.

كان باسل قد توقع أشياء كثيرة إلا أن تكون حنين من مرضى شريف وأنه يعرف هشام المتهم بقتلها، وأنه أيضاً من سعى في أن تعالج حنين عند شريف. سأله ولا زالت تعبيرات الدهشة ترافق قسامات وجهه:

- إذاً من أي مرض كانت تعاني الفتاة؟

أجابه شريف على استحياء:

- أعتذر منك يا باسل تلك أسرار مريضة لا يمكن أن أفشيها لك، رغم ثقتي فيك، لكن يمكنني أن أقول لك أن ما كانت تعاني منه حنين قد يجعلها تُقدم على فعل الانتحار.

زادت تعبيرات الدهشة على وجه باسل ثم قال:

- هذا يعني أنك تشك في أن هشام ليس له يد فيما حدث لها؟

- لا أعلم.. فقد يكون له يد بطريقة غير مباشرة.

- تقصد أن يكون أقدم على شيء دفعها للانتحار؟

- نعم.

سكت للحظات ونظر إلى شريف وقد تسلل الشك إلى صدره، بعد ناظريه عن شريف ونظر إلى النيل الذي يبدو هادئاً ثم نظر إلى شريف مرة أخرى وسأله:

- لكن والدها يتهم هشام من اللحظة الأولى أن هو من فعلها، بالمناسبة والدها هو من اكتشف الجريمة وأبلغ عنه.

- أعلم ذلك، لأنه لم يرض قط عن تلك العلاقة.

- لا أظن يا شريف، الحارس أبلغه أنه شاهد هشام يخرج من البناية، تلك الليلة.

- وحسب ما قرأت، أن هشام لم ينكر ذلك.

- لم أقصد ذلك، ما قصدته هو أن شكه في هشام، أمر منطقي

- أنت لا تعرف هذا الرجل جيداً يا باسل، رجل عنيد، يخاف

على سمعته ونفوذه، ولذلك يرفض تماماً تقبل فكرة مرض ابنته، يعني الأصلح له أن تكون ابنته ضحية مجرم وليست ضحية مرض.

سكت باسل لثوان وارتشف من فنجان قهوته وهو يفكر في

كلام شريف، ثم نظر إليه وسأله متحمساً:

- أنت لم تخبرني بعد عن علاقتك بهذا الرجل، وما حدث

بينكما لتكون تلك الفكرة عنه.

هم واقفاً وتحرك تجاه الشماعة المعلق عليها معطفه وقال له

وهو يرتديه:

- سأخبرك لكن، ليس هنا؛ الجو بدأ يتحسن لنرفه عن أنفسنا قليلاً.

نهض باسل مبتسماً ثم قال:

- أرجوك دع اختيار المكان لي، أنت رجل أرستقراطي وسوف تختار مكاناً يشبهك ضحك شريف قائلاً:

- ليكن. اختر أنت المكان ولك مني ألا أعترض.

كانت نسائم الهواء خفيفة ورقيقة، اقترح باسل الذهاب للجلوس في مقهى ما في الحسين، وافق شريف برحابة صدر، بل أسعده الاقتراح، طلب منه أن يجلس في مقهى ما لكي لا يضيق صدر شريف من الزحام، رفض شريف وفضل أن يستمر في المشي إلى أن يشعر بالتعب.

تعجب من طلب شريف بالاستمرار في المشي وسط الزحام والناس، ظهر هذا التعجب جلياً على وجهه ونظراته بين الحين والآخر ثم سأله على استحياء:

- كنت أظن أن الزحام سيشعرك بالضيق

- ليس كل الزحام يشعرك بالضيق، هناك أماكن بهجتها

تكمن في زحامها

ابتسم باسل برضا وكأن كلمات شريف قد أزاحت حرجه

ثم قال:

- هلا أخبرتني إذا عما فعله والد حنين؟
كانا قد وصلا إلى "باب زويلة" أو "بوابة المتولي" كما يطلق عليها سكان تلك المنطقة، توقف شريف عن السير ونظر إلى باسل قائلاً:

- هذا الرجل كان العائق في طريق علاج ابنته.

اندهش باسل ثم قال له:

- ماذا؟ كيف؟

- عارض بشدة دخولها المصححة خوفاً على سمعته.

- هل يجوز ذلك؟ إنه يحبها جداً، إنني أراه يومياً على باب غرفة العناية يبكي بحرارة.

- أنا لم أقل لك إنه لا يحبها.

- إن كان ذلك صحيحاً، هل يفعل ما يؤذيها؟!

نظر شريف أمامه وابتسم، ثم أشار بيده تجاه باب زويلة قائلاً:

- هل سمعت عن الأساطير المرتبطة بهذا الباب؟

أجابه باسل متعجباً:

- أساطير! لا لم أسمع.

وضع شريف يده في جيبه ثم قال:

- ارتبطت أولى الأساطير التي نسجت حول باب زويلة أو

كما قيل عنه "الباب الدامي".

أشار بيده للباب ثم أردف قائلاً:

- كما ترى هناك مدخلان للباب، المدخل الذي دخل منه الخليفة المعز لدين الله الفاطمي والذي يؤدي للجامع وهو المدخل الوحيد الآن، أما الآخر والذي يؤدي إلى محلات صنع وبيع الدفوف والآلات الموسيقية قد تم غلقه، ودخول المعز من واحد منهم كان سبباً في تفضيل القاهريين له، وتناقلت على ألسنتهم حكايات عن أن من يدخل من الباب الأول يكون مباركاً، والعاقرة لو مرت منه أنجبت، والعانس تتزوج، لذلك كانت النساء تربطن خيوطاً في مسامير الباب، طلباً للإنجاب، أما المدخل الآخر، فمن يدخله لا يفلح وينشغل بالمجون والعبث والبعد عن الله، ويصفونه بالعبيد.

ابتسم باسل وقد اتسعت عيناه وانتبعت كل حواسه ثم قال:

- لم أسمع شيئاً عن هذا الموضوع

- إذا أترى، باب واحد يحمل العفة والمجون في وقت واحد، ونحن نشبه هذا الباب جداً يا صديقي، كذلك والد حنين، قد يكون رجلاً صالحاً وخيراً، لكنه يحمل بعض الشرور، مثل الأنانية، وشهوة النفوذ والطمع، وللأسف تلك الشرور أصابت ابنته وسببت لها في أذى شديد.

لم ينطق باسل بكلمة واحدة، كان حديث شريف ما زال يدوي في داخله يعاد، ويرد صداه، جذبه شريف من يده واقترح

عليه أن يجلسا على مقهى قريب، وافق باسل، ثم قال وهم يكملون سيرهم:

- طبعًا سمي بالباب الدامي لكثرة المعلقين عليه.
التف شريف مرة أخرى إلى الباب ثم قال مبتسمًا:
- يقولون إن دققت النظر ستجد بقع الدماء ما زال لها أثر على جدرانه.

تأمل الاثنان في الباب لثوانٍ وهم صامتون ثم أنهى باسل هذا الصمت قائلاً:

- معك حق، وحتى إن لم يكن هناك أثر لتلك الدماء،
بمجرد معرفة تاريخ هذا الباب تستدرج الأعين لرؤيتها.
نظر شريف إليه ثم وضع ذراعه حول كتفه ليوجهه لاستكمال
المسير، أداروا ظهورهم للباب وواصلوا السير والحديث أيضًا.
- معك حق يا باسل هذا الباب تحمل عبء دماء كثيرة،
عُلقت عليه رقاب وأجساد كُثر بالأيام؛ صعاليك وأمراء،
مظلومون وأبرياء، حلفاء وأعداء، خبثاء وشرفاء.....

ليلة الحادثة

كان بجاد جالسًا على كرسي صغير وأمامه طاولة صغيرة في مقهى قريب من بيته في حي الحسين اعتاد الذهاب إليها، الهموم في عينيه كسواء تنفست بالغيوم الرمادية ما قبل هطول الأمطار، ينظر أمامه دون أن يرف جفنه، الناس يذهبون ويأتون مثل الأشباح أمام عينيه، والأصوات والضجيج متداخلة يصعب سماعها وكأنها تأتيه من بعيد، حتى أنه لم ينتبه لنادل المقهى وهو يحدثه إلا بعد أن ربت على كتفه قائلاً:

- يا سيادة النائب القهوة بردت، أحضر واحدة أخرى؟

- لا شكرًا

أخذ سلسلة المفاتيح التي وضعها على الطاولة وقد تدلى منها قطعة معدنية على شكل علامة استفهام والجزء الأعلى منها على هيئة قلب، ثم خرج من المدخل العفيف لباب زويلة.

حديقة الأزبكية «خيال الظل»

ظل هشام بعيدًا عن الرجل رغم محاولاته الكثيرة وضغطه وإلحاحه الشديد في أن يتحدث إليه هشام ويحكي له ما اقترفه من ذنب جعله حبيس هذا المكان، لكن هشام لم ينطق ببنت شفة، ظل صامتًا يقاوم إصرار مصطفى في معرفة قصته.

لم يكن ميله للوحدة والتفكير في حاله هو السبب الوحيد، لكن كان هناك سبب آخر؛ هل يمكن أن يتعاطف أحد مع قصته، منذ أن أخبرته حنين بسرّها وهو يعلم أنه سيدخل متاهة لا يعلم هل سينجو منها أم سيظل تائهاً ولن تعود حياته كما كانت قبل أن يتعرف عليها.

كان يقول لنفسه «لماذا أدخلني القدر لعبته؟» ماذا كان سيحدث إن لم يصر عليها، أن يبقى جوارها ولا يتركها عندما أخبرته عن سر الأيام التي تبتعد عنه فيها، ماذا إن لم يذهب إليها في تلك الليلة وابتعد عنها وكفى قلبه شر العذاب والحيرة.

لم ينس تفاصيل تلك الليلة، المكان، الطاولة والشموع التي تذوب برقة، والشعلة التي كانت تتمايل برفق وتوشك على أن تحمد كلما مرت نسيمات خفيفة. فستان حنين الأسود،

تلك الوردة المعلقة على كتفها وكأنها فراشة ذات ألوان جميلة قد حطت على زهرة رقيقة، شعرها الطويل الداكن المنسدل على ظهرها كشال مخملي، لون الحمرة على شفيتها التي جعلتها تشبه قطعة الكرز فوق كعكة بيضاء، كان هشام ينظر إلى وجنتيها الحمرابين والخلجل الذي ينبثق من عينيها دون أن يتحدث، ولم تستطع حنين أيضاً أن تتكلم، رغم أنها كانت تعلم أنه لن يدعها ترحل دون أن يعرف ما السر وراء اختفائها.

جلست أمامه والارتباك يملأ عينيها، هشام كان ينظر إليها دون أن يسقط عنها عينية ولو لبرهة، فجأة أنهت حنين الصمت بينهما قائلة:

- هشام! أنا آسفة.. أنا...

قاطعها هشام قائلاً:

- حنين، لا ابتغي منك اعتذارات، أريد أن أعرف كل شيء، الحقيقة.. أرجوك أنا لا أستطيع أن أعيش في كل هذا الغموض.... هذا طبعاً إن كنتِ تثقين بي.

- طبعاً أثق بك.. والدليل على ذلك أنني جئت اليوم لأخبرك كل شيء.

- اسمعك... ولن أقاطعك.

- كانت ليلة قمرية عندما ماتت أُمي.

أشاح بوجهه وأسقط نظره عن عينيها في أسى ثم قال:

- أخبرني من قبل أنها كانت حادثة، تعثرت وسقطت على رأسها.

- نعم هذا ما حدث، لكن رغم أنني لا أتذكر تفاصيل ما حدث إلا أنني أشعر دومًا أنني تسببت في سقوطها، شعوري بالذنب لم يفارقني قط.

قطب حاجبيه مندهشًا ثم قال:

- لماذا؟! -

- أخبرتك أني لا أتذكر تفاصيل.. كأنها صورة مرت أمامي في الماضي ولم أعش تفاصيلها، كفيلم شاهدته ولم يتبق منه سوى صور غير مترابطة، رسخت نفسها في عقلي، دماؤها المراقبة، وعيناها النجلاوان، وجسدها الراقد بلا حراك فيه، أصبح رؤية القمر مكتملاً بالنسبة لي عين على الماضي، صفير يوقظ الذكريات المؤلمة ويبعثها من جديد وتصبح رأى العين، كلما اكتمل جزء من القمر نقص جزء مني، ويستمر النقصان إلى ألا يتبقى مني شيئًا، ولا أستطيع حتى التعرف على نفسي.

كان هشام يستمع إليها باهتمام وتركيز لدرجة أنه لم ينطق بكلمة واحدة بعد أن أنهت حنين حديثها، وبقي صدى قصتها وما روته يتردد في أذنيه، ولم ينتبه إلا عندما ربت على يده قائلة:

- أعلم أن كلامي قد يكون غريبًا أو مخيفًا لا أعلم، لكن تلك هي الحقيقة. تعبت كثيرًا لأتذكر ما حدث في تلك الليلة، خاصة كلما حدث أمر غريب في كل ليلة قمرية ولا أذكرها فيما بعد، جلبني والدي ذات صباح من مركز الشرطة، وعرفت أنني

تهجمت على شخص وضربته حتى ذرف الدماء. أصدقائي كانوا يقلون يوماً بعد يوم بسبب غرابة تصرفاتي والتي لا يجدون عندي لها أجوبة، بالكاد أنهيت دراستي في لندن وعدت إلى هنا.

كان ينظر إليها ويستمتع إليها وكأنها تحكي له عن فيلم تابعته أو قصة قرأتها، ينتظر أن تخبره بالنهاية، لكنها لم تأت، بدأ الخوف يتسلل أكثر إلى جوارحها، والخجل لا يبارح عينيها، نهضت فجأة واستأذنت في أن تذهب للحمام وتعود.

لم يتوقف عقل هشام عن التفكير فيما أخبرته به حين للحظة واحدة، كانت الأفكار تأتي وتذهب في رأسه، كل شيء خطر بباله؛ كيف يساعدها، يفهمها، يدعمها، كل شيء إلا أن يتركها أو يبعد عنها.

عادت بعد قليل، وقد زاد توترها، عيناها حمراوان، الدموع ما زالت تملؤهما، يبدو أنها بكّت مطوّلاً ولا زالت لا يمكنها السيطرة على دموعها.

كان لديه الكثير من الأسئلة؛ عن والدها، وعن تلك الفترة التي عاشتها في لندن، أراد أن يعرف تفاصيل أكثر عن مشكلتها، لكن عندما شاهد حالتها، وتذكر تلك الفتاة التي رآها لأول مرة في الحديقة والتي جعلته يشعر أنها طير جميل ملون. لا يشارك أسراب الطيور، يطير في السماء بحرية، يضرب الهواء بجناحه ويخلق عالياً، شعر أن هذا الطير أصبح ذا جناح مكسور، لم يرد

أن يضغط أكثر على جرحها، كبت فضوله، نظر إليها بحنان ورفق وحب، حاول أن يخلق أحاديث أخرى، كانت مفتعلة وساذجة، فقاطعته قائلة:

- لا داع من اختلاق أحاديث، أعلم أن ما عرفته سيستغرق منك فترة لتستوعبه وربما يدفعك للانسحاب من علاقتنا ... قاطعها قبل أن تكمل حديثها وأمسك يدها قائلاً:

- حنين.. حقاً ما أخبرتني به غريباً ويحتاج فعلاً وقتاً للاستيعاب، لكن لا تضعي أبداً في مخيلتك خيار الانسحاب من العلاقة.. ابتسمت له وهي تسحب يدها من بين يديه ثم قالت:

- إذا من الأفضل أن نرحل الآن... لن نجد ما نقوله.

وافق على طلبها، لأنها محقة، نهض الاثنان، أخذت حنين حقيبتها التي علقتها على مقعدها، رفعت يدها لتضعها على كتفها، فانتبه هشام لوجود بقعة من الدماء على كمها، انزعج جداً، ومد يده على بقعة الدم وسألها إن كانت مجروحة، ارتبكت كثيراً، وأبعدت عينيها عن عيني هشام وهي تحركها يميناً ويساراً، لم تنزعج لرؤية تلك البقعة وأخبرته أنها جرحت يدها بسبب مسمار في خزانة ملابسها لم تنتبه له وهي ترتدي ملابسها، ارتباكها جعله يشعر أن هناك أمراً آخر وأنها لم تقل الحقيقة، لكنه أرجع ذلك الشعور إلى التوتر الذي استوطن لقاءهما من اللحظة الأولى، والذي زاد زخمة بعد كلام حنين، طلب منها أن تهتم به

وتعقمه جيداً، وتتوخى الحذر.

لم يفق هشام إلا على صوت الحارس وهو يهتف باسمه ويخبره بأنهم راحلون إلى النيابة العامة.

نهض هشام من سريره وتوجه إلى الحارس، وأثناء خروجه من الباب همس الحارس في أذن هشام قائلاً:

- يبدو أن هناك شيئاً جديداً قد ظهر في القضية.

ارتبك هشام ونظر إليه وقد استولى الخوف والقلق على نظرات عينيه وصوته ثم قال:

- ما هو؟

- لا أعلم! ولكنك ستعلم بعد قليل.. هيا بنا.

لم يتمكن باسل من النوم في تلك الليلة التي أخبره فيها شريف بشكوكه تجاه ما حدث لحين، ووجد أن تلك الحالة التي عليها قد تكون نتيجة لعنفٍ أحدثته هي بنفسها.

جلس على مقعده الهزاز وظل يفكر طويلاً ولكنه لم يصل إلى شيء يثبت أو ينفي شكوك شريف، كما أن تقرير الطب الشرعي لم يشر بصورة مباشرة أن الحادث انتحار.

نهض من مكانه وذهب إلى مكتبته الصغيرة، عبث بالكتب قليلاً، لكنه لم يجد نفسه في حالة تسمح له بالقراءة حتى ولو كانت على سبيل الاستمتاع برواية مسلية، على بعد خطوات قليلة من

المكتبة، مكتبة أخرى للأسطوانات، أخذ يقلب بين واحدة وأخرى ثم وقع اختياره على أسطوانة موسيقى شهرزاد لكوارسكوف، قبل أن يضعها في مشغل الموسيقى؛ فجأة دق جرس هاتفه، لم يظهر على الشاشة رقم وكأنه رقم خاص لا يظهر للمتصل به، أجاب وقد ظهرت على وجهه تعبيرات الدهشة والارتباك:

- مساء النور.

انطلق صوت لا يعرفه قائلًا:

- أعتذر يا دكتور إن كنت أتصل في وقت غير مناسب، أنا والد حنين.

- مرحبًا، هل حدث أمر ما؟، عدت لتوي من المشفى كانت حالة ابنتك مستقرة.

قاطعته والد حنين قائلًا:

- لا.. لا تنزعج الأمر ليس متعلقًا بحالة حنين.

- اعتقد أنك أثرت فضولي أكثر.

- كنت فقط أريد أن تحدثني عن صديقك الطبيب النفسي اندهش باسل من طلبه وسأله:

- عن أي شيء أحدثك؟!

- دكتور باسل، تعلم أنه جاء إلى المشفى وتحدث معي، وعرفت أنكم أصدقاء.

زاد توتر باسل وبدا له وكأنه سيوبخه، فما فعله هو وشريف

لا يحق لهما ولا يليق بهما، استجمع قواه وسأله بصوت واثق:
- نعم نحن بالفعل أصدقاء، وهو جاء اليوم لأنه أخبرني أن
ابنة حضرتك كانت مريضته في يوم من الأيام.

أجابه والد حنين بلهجة عصبية:

- هذا الذي يدعى هشام الذي حاول قتل ابنتي هو من
أوهمها بأنها مريضة وتحتاج لعلاج نفسي.

- كنت أتمنى أن أساعدك في هذا الأمر لكن شريف لا يحكي
أسرار مرضاه لأحد، حتى وإن كان طبيباً وأقرب صديق له.. لا
تقلق أنا لا أعرف شيئاً، وأعتقد أن حديثك مع دكتور شريف
سوف يفيدك أكثر.

صمت للحظات ثم عاد لنبرته الهادئة وشكره ثم اعتذر له
مرة أخرى، وأنهى المكالمة.

بدأت الحيرة والشكوك تتأرجح في رأس باسل مرة أخرى،
ووجد أن شريف قد يكون على صواب، أمسك بهاتفه واتصل
بشريف وروى له المحادثة التليفونية التي جرت بينه وبين والد
حنين، وسأله إن كان ما قاله قد وضعه في موقف سيئ، لكن
شريف طمأنه وأخبره أنه خدمه بما قاله، وأوضح له أن تلك
المكالمة تعني أن مواجهته مع والد حنين قد اقتربت وأن هو من
سوف يسعى لتلك المواجهة دون أن يحرك شريف ساكناً.

أنهى باسل المكالمة مع شريف وقد أزاح عن صدره حملين

ثقلين؛ الأول هو زيارة شريف لوالد حنين في المشفى، والآخر هو احتمالية أن يكون قد وضع شريف في موقف محرج، ورغم تلك الراحة إلا أنها كانت نسبية ظلت الأفكار تأتي وتذهب في رأسه أكثر فيما يخص حادثة حنين وإصرار والدها على اتهام هشام بتلك الجريمة.

كانت الساعة العاشرة والنصف صباحًا حين جلس بجاد في مكتبه ينتظر هشام ليريه ما وجدته في البارحة في مسرح الجريمة، كانت عيناه متقدة، وحاجباه معقودين يفكر في طريقة يستدرجه بها لأن يقول الحقيقة، يحاول أن يتوقع إجاباته وبأي طريقة يمكن أن يراوغه بها لينفي علاقته بالحادثة، كان يراهن على ذلك لأنه يعلم أنه سينكر وسوف يصير على الإنكار.

دق الباب ودخل العسكري ليخبر بجاد أن محام المتهم قد حضر ويسأله إن كان يمكنه الدخول الآن، أذن له بالدخول وقام بإخفاء ما وجدته في درج المكتب. دخل المحامي وألقى السلام عليه قائلاً:

- صباح الخير يا سيد بجاد.

- صباح النور.

- عندما أخبرتني أن هناك جديدًا في القضية، توقعت أن

يكون الأمر خيرًا.

ابتسم بجاد ابتسامة خبيثة ثم قال:
- كنت أتمنى ذلك لكن للأسف التطورات ليست في صالح
موكلك.

- لم أفهم! ماذا حدث؟

- ستعرف عندما يأتي.

بعض لحظات طرق العسكري الباب مرة أخرى وأخبر
بجاد أن المتهم قد حضر ويسأله إن كان يمكنه إدخاله.

دخل هشام بخطوات ثابتة عنقه مرفوع، نظر إلى محاميه وفي
عينيه بعض القلق وقد حملت نظراته علامات استفهام كثيرة،
أعاد المحامي تلك النظرات لهشام مرة أخرى محملة بإشارات
تعجب، أما محمود فظل يتابع المشهد دون أن يقاطعها، يريد أن
يلتقط طرف خيط، شيئاً ما يؤكد له أنه على الطريق الصحيح،
فهو لا يتقبل أي احتمال آخر.

أمسك بالتميمة المعلقة في القلادة التي وجدها في بيت حنين
ورفع ذراعه لأعلى ليوجهها لناظري هشام ثم سأله عنها فأجاب
هشام وقد عقد حاجبيه تعجباً:

- لا أعلم، لم أرها من قبل، أنا لا ارتدي قلادات، يمكنك
التأكد من ذلك بسهولة.

نهض بجاد من مقعده ووقف قبالة هشام ووجه التميمة إليه
ثم قال:

- كيف ذلك؟! محفور عليها اسمك وتاريخ ميلادك، كيف تصنع لك شيئاً لم تعتد ارتداءه؟!
 بسط هشام ذراعيه بمحاذاة جسده وأجاب بعفوية:
 - لم تأت فرصة لتعرف ذلك.
 قبل أن يستطرد بجاد في أسئلته تدخل المحامي قائلاً:
 - سيد بجاد، هل تأكدتم من البصمات، والحامض النووي؟
 نظر إليه بجاد ولم تنزل تعبيرات الغضب على وجهه ثم أجابه قائلاً:
 - للأسف.. وجدناها في بالوعة الحوض في الحمام زال كل أثر عليها.
 - أعتقد أنها لا ترقى لأن تكون حتى قرينة، ربما صنعتها المجني عليها لموكلي ولم تعطه إياها.
 ابتسم بجاد بسخرية وعاد مرة أخرى إلى مقعده قائلاً:
 - وبرأيك هل ستحتفظ المجني عليها بهذه الهدية في بالوعة الحوض؟!
 - ربما سقطت منها ولم تستطع التقاطها.
 - أو ربما سقطت من موكلك.
 - إذا ارفقها في ملف القضية ولنرى رأي القاضي في هذا الأمر.
 قاطعها هشام ومد يده لبجاد قائلاً:

- هل يمكنني أن أراها؟

التفت إليه هشام، ثم نظر إلى يد هشام الممدودة وأوماً له برأسه إيجاباً وأعطاه إياها، نظر هشام في التميمة وأخذ يقلبها على كلا الوجهين، ثم نظر إلى بجاد وقال:

- هذا بالفعل شغل حنين، لكنها لم تنته منها بعد.

نظر إليه بجاد ورفع حاجبيه وسأله:

- جيد، إجابة غير متوقعة.

- حنين كانت تحتّم مشغولاتها بحرف "H"، ويمكنك التأكد

من الورشة التي كانت تتعامل معها في وسط البلد.

نظر بجاد إليه وقد بدا على ملامحه الاقتناع، بينما أردف

هشام قائلاً:

- هذا يعني أن هذه التميمة لم تنته بعد ولذلك لم تعطني

إياها

لم يستطع بجاد أن يطيل الأمر أكثر من ذلك فهو يعلم أنه في

موقف ضعف أنهى التحقيق على الفور، وأمر بإعادة هشام إلى

مهجعه مرة أخرى.

كان الغضب يسيطر على بجاد بشدة، فبعد أن وجد بارقة

أمل، انقلب السحر على الساحر، وما ضاعف غضبه أكثر أنه

تأكد مما قاله هشام، عندما نظر في سلسلة المفاتيح الخاصة به،

ووجد الختم الذي تحدث عنه هشام، وأثناء استغراقه في التفكير

دخل رئيس النيابة دون أن يطرق الباب وهو منزعج تمامًا ونبه بجاد أن بقاء هشام رهن الاعتقال غير مبرر، وأخبره إن لم يجد دليلًا ماديًا حقيقيًا بعد يومين سوف يضطر إلى تحويل القضية إلى محكمة الجنايات والبراءة أمر حتمي، ثم خرج من المكتب وأعصابه ما زالت مستنفرة.

ملأ اليأس صدر بجاد مرة أخرى بعد أن ظن أنه كان يمكنه أن تضعف قوى هشام بما وجدته، فهو يعلم أن تلك القلادة ليست دليلًا، لكنه كان يظن أنها الطريق الذي يجد في نهايته طرف خيط لإدانة هشام، لكنه لم ينجح في ذلك.

لم يكن يعلم مصطفى أن الشفرة التي أخفاها بين ثنايات فراشه سوف تكون السبب في أن تقتحم دماء غير دمائه المهجع، وأن يُصَبَّغ فراش غير فراشه بالدماء، لم يكن يدرك أن الموت الأحمر قريب إلى هذا الحد.

كان هشام يتكئ على الحائط المجاور لمخدعه، غلبه النعاس دون أن يشعر وكأنه غاب في غيبوبة بعد أن أنهك جسده في الأيام الماضية في السهر والتفكير. استيقظ من هذا السبات المؤقت على حالة من الهرج والذعر أصابت الجميع عندما شاهدوا عمر يسبح في بركة من الدماء ووجهه شاحبًا أبيض كتمثال شمع بعد أن صعدت روحه إلى بارئها، مات في صمت قطع الوريد الرئيسي

في فخذه، وقد تلفح تمامًا بغطائه لكي لا ينتبه أحد له وينقذه.
كان يطل برأسه من بعيد وقد حال دون ترقبه عن قرب
أجساد المساجين الذين يتابعون جسدًا بلا روح قد حفر مصيره
على فخذه ليصبح عدمًا، كما جاء من العدم، حاول أن يقترب
خطوة بعد خطوة ليرى إذا كان وجه هذا الرجل مألوفًا، عندما
اقترب أكثر وجد مصطفى بجواره وقد بدا على وجهه حزن شديد
ويقاوم سقوط دموع ندمه وأنات ضميره بصعوبة، وقف هشام
في مكانه وكأنه تجمد في مكانه نظر إليه مصطفى بقلق وأشاح
بوجهه بعيدًا وقد شعر بالخجل كونه سببًا في أن أزهد عمر روحه
وسببًا في أي بلاء آخر قد يحدث أو يصيب أحدًا من عائلته.

عاد هشام مرة أخرى لفراشه وقد أعادت الدماء لذهنه
ذكريات رحلة نوبيع التي كانت سببًا في أن يتخذ قرار الذهاب
إلى طبيب نفسي ليستشيره في حالة حنين.

كان القدر قد وضع خطته مسبقًا ليرى هشام كل شيء بنفسه
ويواجهها الليلة القمرية معًا، رغم تحسبهما ألا يفعلًا، تغيرت
الأحوال الجوية وتجهمت الغيوم في السماء كالوحوش الضارية
إذ انفردت بفريسة، أمطارًا غزيرة وكأن السماء تسكب كل ما
لديها من ماء جمعته من البحر لشهور طويلة وغبارًا يحجب الرؤية
ويتطاير في العين كسهام طائشة لا هدف لها، صوت الرعد يملأ
الأذان رعبًا أكثر مما تراه الأعين من صواعق البرق الذي لا يزيح

الظلام عن البحر إلا ليشيع عتمته ووحشته وأمواجه المتلاطمة أكثر، لم يكن أمامهما إلا البقاء إلى أن يتحسن الجو.

مريومان وتحسن الجو، لكن الأثر الذي تركه جعل الطريق وعراً يصعب التقدم فيه كيلو واحد.

القمر اقترب للكمال وشخصية حنين التي عرفها هشام كانت تنحسر مع كل ساعة تمر، نظراتها تتغير، مزاجها يتقلب، خطواتها على الأرض، سلامها وهدوء روحها، ترقص كالمجانين وتشرب كالمعربدين، جرأتها كانت تقترب من الوقاحة، حتى أن ملامحها استحالت غريبة ومريبة ومخيفة.

لم يستطع النوم في تلك الليلة ويستجدي النهار ليأتي ليأخذها ويعود بها إلى بيتها، ظل يراقبها حتى غلبه النعاس، ولم يكن يعلم أن ما سيراه كان مخيفاً أكثر مما توقعه خياله.

لم تكن ملامح راندا الهادئة البريئة تصرح أبداً برعونتها واندفاعها وقسوة قلبها. عاشت حياة تعيسة منذ أن مات والدها وهي طفلة صغيرة لم تتجاوز العشر سنوات وتزوجت أمها من رجل آخر بعد فترة قصيرة، لم يعاملها في يوم من الأيام بقسوة زوج الأم، لكنه لم يكن يمنحها حنان الأب الذي تشعر به أي فتاة تجاه والدها حتى في أكثر الأوقات اختلافاً وغضباً، كان يفتقر إلى الغريزة الأبوية التي تتجلى أحياناً دون أن يشعر وبلا تخطيط

في بعض المشاعر السلبية مثل الخوف والقسوة والتحكم وتطّيح بالظنون السيئة والاحتمالات المريضة في هذه الانفعالات، بينما الأمر يختلف بالنسبة لرجل يقف في المنتصف لا يعلم متى يكون قاسياً وفي أي وقت يغدق الحنان لأنه لا يمتلك تلك الغريزة الموصولة بلا فواصل بقلب وعقل أبنائه.

كانت تشعر دائماً أن هذا الرجل ضيف على البيت، خاصة أن الله لم يمنحه القدرة على منحها أختاً أو أختاً، ليكون هناك رابط يجمعهما.

مرت الأعوام وكبرت راندا ومشاعرها لم تتغير تجاه زوج أمها، لكن العكس لم يكن صحيحاً وبدأت مشاعر راندا تجاه زوج أمها تتردد لها الأصداء وأدركت أن الشعور الذي لطالما شعرت به بأن هذا الرجل لا ينتمي للبيت أو لها هو شعور متبادل، فلا يمكن أن ينظر رجل لابنته بعينين تملؤهما الرغبة، ويلمسها بيدين مرتجفتين تتمنى أن تلمس مفاتها وأن يملأ حضنه بجسدها المفعم بالأنوثة والشباب.

لم تحتج راندا وقتاً طويلاً لتفهم ما وراء النظرات وأدركت سريعاً، فالحاجز النفسي لم يسمح للمشاعر أن تأخذ مكاناً لها في علاقتها وكان العقل فقط هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة. تحملت مشاعره الكريهة ونظراته البغيضة وتجنبت الاجتماع به، فأى صدام بينهما كان سيضطرها إلى ترك البيت، وكان عليها

أن ترتب حياتها بعد أن تترك البيت وترحل.

مرت الأعوام وأنها راندا دراستها الجامعية وتمكنت من الحصول على عمل في شركة إنشاء مواقع إلكترونية مهمة، لم تلب هذه الوظيفة احتياجات الحياة الرغداء التي كانت ترغب فيها راندا لكنها أغتتها عن سؤال اللئيم.

ظنت راندا أن الحاجة المادية فقط هي من جعلت والدتها تقبل الزواج من هذا الرجل ولم تخف عليها من دخول رجل غريب حياتها، وبالتالي لم تشك قط أن التحرر من القيد المادي الذي أسرها به زوج أمها هي الوسيلة المضمونة للوصول إلى بر الأمان. كل يوم كان يمر عليها ثقيلاً، متعباً، مثيراً للغثيان والخوف، ترى كل ليلة ظلال قدميه تتحرك يميناً ويساراً كالشبح المرعب، كانت تشعر أن في ليلة ما ولحظة ما سوف يقتحم الباب المغلق عليها ويهجم عليها في فراشها كالوحش الضاري المفترس ليغرس أنيابه فيها ويمتص دماءها بكل شهوة ونهم مقرف، وبالتالي عندما اكتملت خطتها للحياة المستقبلية التي تخلو من هذا الرجل الذي تناقست أخلاقه يوماً بعد يوم وضميره الذي ذهب في سبات عميق، كان عليها أن تتحدث بكل صراحة مع والدتها وتخبرها بكل شيء ليهجرا هذا البيت ويرحلا بعيداً، لكن ما اشتتهه السفن لم تأت به الرياح، لم تصدقها والدتها ونعتتها بقلة الأخلاق والتربية والتمرد وأخبرتها إن نطق لسانها بتلك

الأخبار الكاذبة والافتراءات سوف ترسلها إلى عمها ولن تسمح لها بالنظر إلى وجهها مرة أخرى.

كانت صدمة راندا في والدتها كبيرة إلى حد الجنون، كادت أن تفقد عقلها وتهوى المنطق منه وفسح مجالاً واسعاً للأفكار الشريرة الشيطانية لأن تسكنه وتستقر فيه وظلت تتراقص أمامها كل يوم إلى أن تمكنت من زمامها كلياً ولم يتبق سوى أن تحيك خطة محكمة لا تهدف إلى الإنصاف بل للانتقام والطعن في القلب مباشرة.

كان السؤال الذي تبادر إلى ذهن شريف عندما أخبره هشام عن ليلة نوبيع وما أحدثته في ذراعها من جروح هو ما السبب الي دفعها لأن تفعل ذلك، وألح في السؤال أكثر كلما راوغ هشام في الإجابة وهو ما جعل يقين شريف في أن هشام يخفي شيئاً ما يتجلى ليخبره بصورة مباشرة وبلهجة واثقة متأكدة قائلاً:

- اسمعني يا هشام ما أخبرتني به لا يرسى أبداً احتمال أن حين كانت تريد الانتحار.

- إذا كانت تفتعل الانتحار؟

- لا في حالات اضطراب الشخصية خاصة في الحالات المتطورة كالتي تعاني منها حين يلجأ المريض إلى إصابة نفسه ببعض الجروح ليتشتت تركيزه عن ألمه النفسي ويشعر بألم آخر،

يمكن أن تقول من آليات الحيل الدفاعية التي يلجأ إليها العقل.
ظل شريف ينظر إلى هشام للحظات ثم ضم كفي يديه
لبعضهما البعض قائلاً:

- وغالبًا يحدث هذا الأمر عندما يشعر المريض بذنب
وتوبيخ من الضمير بصورة عميقة.

حاول هشام كثيرًا أن يبعد عينيه عن مرمى نظرات شريف
لكنه استسلم في النهاية، أخذ نفسًا عميقًا وأغمض عينيه ثم
فتحها مرة أخرى قائلاً:

- كانت حنين كمن ثمل ببئر خمر، ظلت تمرقني بنظراتها
وتدعوني لإتمام شهوتها، لم تكن هي؛ وكأن امرأة أخرى سكنت
جسدها، امرأة لعوب تعرف كيف تشعل نيرانًا لا تنطفئ حيثما
اقتربت من أي شيء تطاله ألسنة لهبها تشتعل أكثر، قاومتها
قدر استطاعتي ووسع طاقتي في تهدئة رغبتني وترويض نفسي،
وعندما انتهت قدرتي على الاحتمال صفعتها، نظرت إليّ وقد
تجمعت الدموع في عينيها، لحظات قليلة من اللوم والخجل
والانكسار، يبدو أنها لم تتحمله روحها وفقدت وعيها، تركتها
وخرجت خوفًا عليها من نفسي لكنني لم أستطع أن أتركها وحيدة
وبقيت أراقبها من الخارج حتى غلبني النعاس، استيقظت
وبحثت عنها، ثم وجدتها مستلقية على الشاطئ، وتلك الجروح
في ذراعها، شعرت بالخوف الشديد، فقد تفعل ذلك مرة أخرى

وتحدث جروحاً مميته.

صمت شريف قليلاً ثم نهض من مقعده وذهب إلى طاولة صغيرة مجاورة للشباك يسميها "حرم الكافيين" فهي تجمع بين القهوة والشاي والكابتشينو والإسبرسو والنسكافية وسخان صغير يعمل بالكهرباء، نظر إليه وهو يصنع القهوة وابتسم ثم قال:
- لم أحب أبداً قهوة الماكينات، رغوتها المصطنعة تشبه بسمه بريئة على شفاه امرأة لعبوب.

ابتسم هشام لمزحة شريف ثم قال:

- ومع ذلك قد ينخدع المرء فيها

- إن أراد ذلك

صمت هشام ونظر له قاطباً حاجبيه ثم قال:

- لم أفهم ماذا تقصد؟

وضع شريف القهوة فوق السخان وعاد مرة أخرى إلى مقعده ثم قال:

- أقصد أن الفضل في أغلب الأحيان لا تكون في حكمة

صانع القهوة ولا سذاجة الشارب، إنها الرغبة يا هشام وقد

تكون تلك الرغبة بوعي كامل وقد يكون الوعي غائباً عنها

تماماً، ما أردت أن أخبرك به هو أنك أردت تكوين فكرة عندي

عن حنين بناءً على رغبتك في الحقيقة التي تريد أن تراها فيها

والتي قد لا تكون واقعاً يدركه كل الناس.

- يعني تريد أن تتحدث أنت معها.
- نعم وفي أقرب فرصة.

لم تظن راندا وهي ترسي أساسات خطتها أن الهدف سيكون سهلاً ومستضعفاً إلى هذا الحد، انطلت عليه نظرات الاشتهاء والرغبة التي سكبتها رغماً عنها في عينيها لإغراء زوج والدتها، لم تلاحقه طويلاً والنظرات التي كان يسترقها في كل ليلة لم تعد ممنوعة ولا مسروقة عندما فتحت باب غرفتها لم تترك المفتاح في الباب وكانت متأكدة أنه سيختلس تلك النظرات من فتحة المفتاح في بابها، الباب الذي كان يظن أنه الفاصل بينه وبين نسيم الجنة ولم يخطر بباله قط أنها عاصفة من الجحيم.

ليلة بعد ليلة وهي تتعمد إظهار مفاتنها ودلالها، الوجه المتجهم أصبح يبتسم له، وأطراف البيت التي كانت تتجنب الجلوس فيها أو حتى المرور منها لم تعد كذلك.

راندا كأى امرأة تعرف جيداً الكم الذي يجب أن تقدمه، تعاييره بميزان الماس، ليعطيها النتيجة المطلوبة وفي الوقت المحدد، في اليوم الذي تأكدت أن الأمر سينتهي، عادت من عملها مبكراً، أمها في السوق كالعادة والزوج الوضع سيصل بين حين وآخر، كانت راندا تترقب عودته وعندما رآته عائداً، حدثت أمها وطلبت منها أن تعود إلى المنزل أخبرتها أنها نسيت

مفتاحها وعندما سألتها عن سبب عودتها للبيت أخبرتها أنها شعرت ببعض التعب. دخلت مسرعة إلى حجرتها وتخلصت من بعض الملابس التي ترتديها، في تلك اللحظة فتح زوج أمها باب الشقة ووقعت عيناه على راندا وهي تخلع ملابسها، تيسس في مكانه كان يمعن النظر في الجسد الذي اشتهاه برعونة إلى حد المخاطرة بهيبته، ظل يقترب منها خطوة خطوة، يقترب هو وتحتلق راندا ابتسامة ودعوة كاذبة في عينيها إلى أن أصبح في غرفتها، وعندما لاح خيال أمها من وراء الباب بدأت تصرخ وتحاول أن تدثر جسدها بشياها التي خلعتها، لكن الجنون والشوق والرغبة؛ ثلاثة لا يدعون أبداً للعقل مجالاً. هجم عليها كالوحش الجائع الذي ينقض على فريسته بكل قوته، لم يوقفه إلا عندما أطلقت راندا صرخة عالية قائلة "ماما".

كانت والدتها تقف على أعتاب غرفتها تشاهد هذا المنحرف المجنون الذي يعتدي على ابنة زوجته التي تربت بين يديه، التفت إليها ولم يستطع النظر مباشرة في عينيها بعد أن انهزم لذكورته ولم يمثل لرجولته وأبوته، أما راندا فقد كان الانتصار يظهر في عينيها بتجلٍ، لم تكتف بهذا وإنما راحت تضغط على جرح أمها بكل قوتها وهي تردد كلامها السابق الذي لم تصدقه أمها. استفزتها بمنتهى القسوة وأخبرتها أنها أوقعته في هذا الفخ لتجعلها ترى بعينيها وتسمع بأذنيها ما كذبه من قبل، ولم تكتف

بذلك، أخبرتها عن تلك الليالي التي كان يقضيها على ركبته أمام غرفتها ليحظى بنظرة عليها وهي نائمة. عندما فرغ صبر زوج أمها من سماع إهانته بأذنيه بدأ يتهجم عليها مرة أخرى ولكن في تلك المرة ليسكتها، لكن تدخلت والدتها وصدفته لم يجد ما يقوله، ولم يستطع النظر أكثر في وجهيهما، كالذليل، فترك البيت وخرج، تلك الصفعة أطربت آذان راندا وشعرت بأن انتقامها قد تحقق، لم تتوقع أنها ستواجه كل هذا السخط من أمها، نظرت إليها وحافظت على دموعها حبيسه في مقلتيها ثم قالت " اجمعي أغراضك واطركي هذا البيت، وإن تبقى لي عندك شيء من الحب والشفقة، لا تريني وجهك مرة أخرى... أنت شريرة ساقطة". وفعلت وخرجت من البيت.

وانقطعت صلتها بوالدتها منذ ذلك اليوم.

كان يظن أن في وقت ما سوف يتحدث هشام عن مرض حنين وأنه جلبها بنفسه لطبيب نفسي، انتظر كثيرًا استدعاء من النيابة ليدلي بشهادته، لكن لم يحدث هذا، قرر شريف أن يذهب إلى النيابة ليدلي بشهادته عن حالة حنين، ربما صمت هشام خوفًا من والدها، أو حرصًا على سمعتها، فكر في البداية أن يتحدث مع محامي هشام، لكنه تراجع فقد يمنع هشام حدوث هذا لنفس الأسباب التي جعلته يصمت، كان قراره أن يذهب مباشرة إلى

وكيل النائب العام المنوط بالتحقيق في القضية ولم يتوقع أبدًا أن يتعثر في تلك المفاجأة التي جعلته يتراجع عن التفوه بكلمة واحدة تسجل في ملف القضية بشكل رسمي.

عندما دلف شريف مكتب محمود شعر بقبس من نور قد سطع فجأة؛ هو يدرك ذلك الشعور جيدًا ويعرف أن ذلك الشعور ليس عشوائيًا، طاقة غريبة تملأ الغرفة خواطر تداهم أفكاره أشعة من نور تشتت ثم تتجمع مرة أخرى. جال بناظره في المكان كله إلى أن وقعت عيناه على وجه لا يعرفه لكنه يدرك ملامحه تمامًا، هذان الحاجبان الكثيفان القريبان من تلك العينين الغائرتين البنيتين المائلتين للاحمرار كبندقتين اقتنصتهما أشعة الشمس، عظام الوجه العريضة، والأنف العريضة، والشفتان المطبقتان على بعضهما البعض تلك الملامح التي جعلت وجه بجاد، ونظراته حادة.

أذن محمود لشريف بالجلوس ثم سأله عن سبب قدومه، وقبل أن يتحدث شريف مد بجاد يده إلى كوب الشاي ورشف منه رشفة ووضعته مرة أخرى. "كأس ذو خصر نحيف"، هكذا قال بهمس، فسأله بجاد متعجبًا:

- ماذا قلت؟ لم أسمعك.

ثم نظر إلى اللوحة الموضوعة على مكتبه والتي كُتب عليها اسمه "بجاد الصواف". أعاد بجاد السؤال عليه مرة أخرى،

فنهض من مقعده، وقد أدرك أن عليه أن يصمت ولا يتحدث:

- لا شيء، تذكرت موعدًا مهمًا ويجب أن أرحل الآن.

طرق بجاد المكتب بيده فسقطت سلسلة المفاتيح الموضوعة على المكتب على الأرض ثم قال:

- أفسخ مني يا طبيب؟!

لم يجبه شريف فقد تبدد تفكيره في التهمة المعلقة في سلسلة المفاتيح التي سقطت على الأرض، انحنى بجاد وجلب السلسلة وقد زاد غضبه ثم قال:

- أخبروني أنك أردت مقابلي لإخباري بشيء مهم ما هو؟

- نعم قرأت في الجريدة تفاصيل القضية والاعتداء الوحشي الذي قام به المتهم، وأرى إن كان هذا الرجل فعلاً هذا حقاً فهو يحتاج لعلاج نفسي.

أجابه بجاد وقد هدأ قليلاً قائلاً:

- وهل تظن أننا سنعجز عن ذلك؟

- انفعلت بالقضية فحسب وأردت تقديم المساعدة

أجابه بجاد وقد تبدد اهتمامه بعد أن تحمس لاحتفال وجود ما يساعده عند هذا الرجل:

- شكرًا لك، إن رأينا أن هناك داعيًا لذلك سوف نفعل، يمكنك الرحيل لتلحق موعدك.

شكره شريف وخرج من المكتب وهو يلتقط أنفاسه

بصعوبة، المفاجأة كانت أكبر من استيعاب عقله، الآن أدرك سبب التعنت في اعتقال هشام، الأمر الذي تحدث عنه الصحف ولم يعلمه أحد قد عرفه، في ذلك الوقت أدرك أن القدر قد ساقه إلى هذا المكان بل ذهب إلى أكثر من ذلك وعرف أن مشاهدته التلفاز في تلك الليلة لم تكن مصادفة، سؤاله لحين إن كانت أحببت شخصاً ما قبل هشام لم يكن عشوائياً، تلك التفاصيل التي أخبرته به والتي رآها بعينه أيضاً، حدث ذلك عمداً.

لم يفكر كثيراً وأدرك أن عليه التحدث مع بجاد، الرجل الذي تسبب في حدوث هذه المأساة بصورة مباشرة أو غير مباشرة، في اليوم التالي وقف ينتظره أمام دار القضاء العالي بعد أن سأل عليه وعرف أن عنده مرافعة في قضية ما.

خرج بجاد وترجل على درج مجمع المحاكم الشهير وقد وقعت عيناه على شريف وبدأ يتحرك بخطوات أبطأ إلى أن وقف أمامه وابتسم بخبث قائلاً:

- إذا ما أخبرتني به بالأمس كانت خدعة.

واسترسل بعد أن تلاشت تلك الابتسامة وعقد حاجبيه:

- ماذا تريد؟! أجب ولا تجعلني أقحمك في القضية بطريقة

أو بأخرى.

ابتسم شريف ابتسامة العارف ببواطن الأمور ثم قال:

- هذا التهديد لم يلق بك يا سيادة النائب سأخبرك بكل شيء.

- استدرج شريف بجاد للسير، وهو يقول:
- أشعر ببعض المتعة في التجول في هذا المكان.
- نظر إليه بجاد متذمرًا، ثم قال:
- أظن أنك متأكد من أنني لست مهتمًا أبدًا بأن أعرف أين تجد متعتك، أخبرني ماذا لديك؟
- ما سأخبرك به كان يحدث هنا قديمًا.
- لم أفهم!
- أشار شريف بسبابته للأمام ثم قال:
- على بُعد بضعة أمتار من هنا حديقة الأزبكية هل تعلم أنها كانت قديمًا بركة اتخذها المماليك موقعًا لإقامة القصور وأماكن اللهو حولها، وبمجيء نابليون بونابرت مع الحملة الفرنسية بين عامي ١٧٩٩ و ١٨٠١ شاهد فيها لاعبي خيال الظل المنتشرين هناك، فقرر إنشاء مسرح للترفيه عن جنوده، وبعد رحيل الحملة وتولى محمد علي حكم مصر، أمر بتجفيف البركة وتحويلها إلى حديقة عامة، وهذا الفن (خيال الظل) رغم أنه لم يعد موجودًا، أثر كثيرًا في المسرح العربي الحديث بشكل واضح ولكن لسوء الحظ لم يعرف بالضبط تاريخ دخوله مصر لكن بالتأكيد كان موجودًا في القاهرة الفاطمية.
- لم أفهم! ما علاقتي أنا بما تقوله
- ابتسم ونظر إليه بعد أن كان ينظر في اتجاه الحديقة ثم قال:

علاقتك وثيقة، في مسرح خيال الظل محرك الأحداث لا يظهر أبدًا للجمهور يبقى مختلفًا تلك هي اللعبة؛ دمية تتحرك وتتحدث وتتصرف بأمر محركها.

بدأ تظهر بعض تعبيرات الغضب على وجه بجاد لكنه تمالك انفعالاته ثم قال:

- يا دكتور إذا كنت تريد أن تقوم بجولة في القاهرة وسرد الحكايات الممتعة فأعتذر منك لأنني لست متفرغًا لذلك الآن.
أدار بجاد ظهره وتحرك خطوتين فأوقفه شريف قائلاً:
- أنت كنت كذلك في حكاية حنين غير الممتعة.
تجمد بجاد في مكانه وجحظت عيناه وأدار رأسه إلى شريف مرة أخرى متسائلاً:
- ماذا تقول؟! -

ليلة الحادثة

أمسكت حنين قلادة فضية في يدها ونظرت إليها بإعجاب حُفر عليها في الخلف، ثم أمسكت بهاتفها وإذا بصوت رجل ينطلق منه قائلاً:

- أستاذة حنين طلبيتك أوشكت على الانتهاء.
- دعك من تلك التي أرسلتها لك، لا تتعجل ما زال لدينا بعض الوقت، أريد منك شيئاً آخر.

- أين أنت؟

- قريب من دكانتي تحديداً بجوار حديقة الأزبكية، مريني أستاذة.

- حقاً لم انتبه للساعة على كل حال، لا يهم سأرسل لك غداً قلادة للتنظيف سأقدمها هدية بعد يومين، ليكن عملك عليها أروع مما اعتدته منك.

- وهل يجوز ألا يكون؟! والختم يا أستاذة؟

- طبعاً، اختمها.

- تمام.

- شكراً لك يا مصطفى، أنت من أفضل من تعاملت معهم في تصميمات الفضة.

انتهت حنين المكاملة ونظرت مرة أخرى للقلادة مبتسمة، وذهبت إلى الحمام لتنظف ما علق بها من غبار.

بئر يوسف «السر القديم»

بعض الأسرار ليس من الحكمة أن تبقى أسرارًا، ومن الأفضل البوح بها، وبالتالي لا يصح أن نلقي بها في الآبار، فالآبار تحفظ الأسرار، عندما بدأت حنين البوح لشريف كانت تظن أنها ستكذب في وقت ما، في إجابة ما؛ فهي لم تعتد قط الحديث عن حياتها لغريب أو قريب، وتلك التفاصيل التي نسيته في غفلة ودون إرادتها، وتلك التي تناستها في صحوة منها وبكامل إرادتها ظنت أنها ألفت بهم في البئر، وأن نجاتهم منه أشرفت على المستحيل، حيثما أرادت، اختارت سرها الذي لم تلق به يومًا في البئر.

كان بجاد، الذي ظنت أنها تجاوزته بعلاقتها مع هشام، لكنها تفاجأت أنه أول من خطر في بالها عندما سأها شريف هذا السؤال، لكنها شعرت بالراحة والسلام لمجرد الحديث عنه.

ثمة يوم من الأيام نشعر فيه أن شيئًا ما على وشك الحدوث، لا نعلم ما هو، ولا نعلم إن كان خيرًا أم شرًا، لكن كل ما ندركه هو أن هذا اليوم ليس كباقي الأيام، كان لم يمر بعد على عودتها من لندن؛ - والتي كانت ضد رغبة والدها وجِدَّتْها - سنة، خرجت من بيتها فوجدت إطار سيارتها قد تسرب منه بعض الهواء، فذهبت إلى أقرب ورشة وهناك وبعد أن انتهى العامل من

إصلاحه اكتشفت أن حقيبتها اختفت، فذهبت إلى قسم الشرطة للإبلاغ عن الحادث، وبالرغم من إنكار صاحب الورشة المستمر إلا أنها أصرت على الاستمرار في البلاغ وإحالته إلى النيابة، في اليوم التالي ذهبت إلى النيابة لاستكمال التحقيق، وهناك بدأت محاولات والدته وأخيه لاستعطافها لكي تتنازل عن شكوتها، ولأنها لم تر شيئاً بعينها وما كان في الحقيبة من شيء مهم يستحق أن يؤلمها ضميرها إن كانت مخطئة، قررت التنازل عن شكوتها، دخلت غرفة وكيل النائب العام وقد تعالت خفقات قلبها من رهبة الموقف، كان ينظر في الأوراق الموضوعة في ملف على مكتبه، وعندما دخلت رفع عينه ونظر إليها ثم نظر مرة أخرى للأوراق، ثم رفع عينه ببطء ونظر إليها؛ ربما تأخر إدراكه لوجودها لثوانٍ قليلة، أو ارتباكها لفت نظره، كل شيء محتمل وغير مؤكد، لكن الأمر المؤكد أنه عندما تتعثر الكلمات وتمنعها الشفاه من الانطلاق يبدأ حديث العيون، كلاهما سمع حديث عيني الآخر؛ ثوانٍ قليلة سرققتها الصدفة من ساعات اليوم، علق الاثنان في عالم آخر حملتهم إليه شرارة انطلقت دون إنذار، لحظة الهبوط على الأرض كانت خاطفة، لكنها لم تكن مزرية فقد عرفا أن الحياة على الأرض لن تكون كما كانت في السابق، في تلك اللحظة عندما سألها إن كانت لا تزال تتهم هذا الرجل بسرقة حقيبتها شعرت أن سواء كان هذا الرجل مذنب أو بريء فقد

أسدى لها معروفًا وعليها أن تكافئه.

انتهى التحقيق وقد أُطلق سراح الرجل، طلب منها بجاد أن تترك رقم هاتفها ليتمكن من الوصول إليها في حال أن تم العثور على أغراضها.

حديث في النفس، محبب إلى الروح، أرجوحة من ورود معلقة في الهواء تحملنا إلى الأمل في السعادة تارة ثم تتراجع إلى الخوف من الخذلان تارة أخرى.

مريومان وقد تردد كثيرًا في أن يهاتفها، فحديث العيون هذا رغم صدقه لا يمكن الوثوق به والمقامرة بالنتيجة أن تحول إلى كلمات تلامس الآذان، لكنه أدرك أن الأمر يستحق المجازفة، تطورت الأحاديث بصورة طبيعية، كل منهم يترك بابًا مفتوحًا للحديث مرة أخرى، لكن لم يصرح أحد منهم عن حقيقة مشاعرهم، كانت الحيرة تعتصرها، لا تعلم بماذا يشعر، هل لم يحسم أمره بعد أم أنه ينتشي من شعورها بالحيرة، فقررت أن تأخذ الخطوة الأولى.

ذات يوم دخل بجاد مكتبه ليجد علبة صغيرة على المكتب بها كوب صغير وسلسلة مفاتيح وملاحظة من حنين كتبت فيها « فكرت كثيرًا عندما أخبرتني أن الطبيب حذرك من تناول الشاي بكثرة، ولأنك تحب كوب الشاي ممتلئ؛ فإليك بالحل، ستشرب شايك في هذا الكأس ذي الخصر النحيف، وبهذا لن

تضر صحتك ولن يفسد مزاجك».

لم يجد في الملاحظة تفسيراً لتلك التهمة التي عقلت في حلقة المفاتيح فأمسك بهاتفه وحدثها ليفهم منها:
- أخبرتني بالغرض من الكوب، لكن ما معني تلك التهمة؟!

انطلق صوتها من الهاتف منخفضاً ومرتبكاً قائلة:
- أنت رجل ذكي، وتعلم أنه لا يجوز الإجابة عن السؤال بسؤال؟

- تسأليني إذا؟!

- نعم.

- لكنني لم أسمع جيداً، هلا أعدتي السؤال مرة أخرى؟
صمتت قليلاً ثم قالت:

- بجاد، لقد تعبت من تفسيرك لنفسي، أنت دائماً تصمت عندما أريدك أن تتحدث وإن تحدثت يحمل كلامك أكثر من معنى وآلاف الألغاز..

ثم صمتت قليلاً وأتى صوتها فيما بعد متهدجاً وهي تقول
- ورغم كل هذا الارتباك لم أنفك في أن أشعر...
قاطعها قائلاً:

- حنين علامة الاستفهام تلك ذات رأس القلب؛ كانت بداخلي.. أنا لم أجد تفسيراً لنفسي، لم أشعر قط بما شعرت به

نحوك، فلم أكن أدرك ما يحدث، وإلى الآن لا أدرك، لا أعلم إن كان ما أشعر به حقيقياً أم لا.

بدأت تهدأ قليلاً وبعد أن اعتلت شفتيها ابتسامة تناثرت عليها قطرات من دموعها، تلاشت ببطء عندما بدأت تشعر بحيرته وخوفه، وقالت:

- إذا لنبتعد عن بعض قليلاً، ربما تجد تفسيراً لنفسك
قطب حاجبيه ثم قال:

- من أين خرج هذا الآن؟!

- لا يجوز أن تبقى علامة الاستفهام تلك بيننا حتى وإن كان رأسها قلب

صمت بجاد ولم يعلق على كلامها، بينما كانت تلتقط حنين أنفاسها وتنتظر منه ردّاً، وعندما شعرت أن صمتها لم يدفعه للحديث قالت:

- يجب أن أنهي المكالمة الآن، دمت سالماً.

أغلقت الخط دون أن تسمع إجابة منه وظلت ترقب الهاتف تنتظر أن يتصل بها مرة أخرى، لكنه لم يفعل، غضب منها وقرر ألا يحدثها، أصابته اللعنة التي تصيب بعض العشاق، الطمع في المنتظر أن ينتظر أكثر، حتى إن كان على حساب راحته.

في تلك الأثناء لم يكن لدى حنين أصدقاء في مصر بعد أن

غابت عنها سنوات وسنوات، تسهر الليالي وحيدة ولا يوجد من يؤنس وحدتها، أو ما يملأ فراغها؛ هكذا الحال دائماً عندما تزداد أوقات فراغنا، تملأ الأفكار رؤوسنا، خاصة السلبي منها، ويصبح الوضع أسوأ إن لم نجد ما يبعثرها ويشتهاها، لم يأت على بالها سوى راندا، تلك الفتاة التي تعرفت عليها عندما قررت أن تنشئ موقعاً خاصاً بها لتعرض ما تصممه وتصنعه من حلي، لم يكن قد مر على علاقتها وقتاً طويلاً، ورغم كثرة اللقاءات بينهما إلا أن علاقتها لم تكن وطيدة بعد، ورغم ذلك وجدت نفسها تحدثها عن علاقتها مع بجاد، أخبرتها بحيرتها وعن تلك الأشياء التي لطالما فسرتها لنفسها لأنها لم تجد لها إجابة عنده.

كانت راندا تشعر بالحقد والغيرة تجاه حنين رغم ما قدمته لها من ثقة ودعم كبير في عملها عندما طلبت منها أن يؤول كل عملها لها دون أن تتدخل الشركة ليصبح عملها معاً خاصاً بها، المال، والجمال، والملابس الباهظة الثمن ونفوذ أبيها، جعلوا منها جمره ملتهبة، تحرق كل شيء بمجرد أن يلفحها هجيرها.

عندما عرفت قصتها مع بجاد بدأت تضخم تلك الغيرة بداخلها أكثر، فكانت تحدثها نفسها بسوء شديد "ماذا تريد تلك الفتاة أكثر، ما زالت تبحث عن السعادة تريد أن تستحوذ على الحب أيضاً" وبالتالي كانت تحدثها دائماً بطريقة سلبية عن تلك العلاقة؛ تفعل ذلك فقط لكي لا تراها سعيدة، وعندما طالت

بينهم القطيعة كانت تحفزها دائماً على التزام الصمت، وتبرر لها ذلك بأنها كانت صاحبة الخطوة الأولى في هذه العلاقة وعليه إن كان يجبها حقاً أن يثبت ذلك ويكمل خطوات التقدم أكثر في هذه العلاقة.

عندما بدأت العلاقة بين حنين وبجاد تتطور بصورة جيدة، والسعادة تحيطهما بجناحيها؛ زادت رغبتها في إفساد تلك العلاقة ولأنها كانت حادة الذكاء أدركت أن ما كانت تفعله في السابق لن يجدي نفعاً، لكنها لم تياس وكانت تحاول بين الحين والآخر، إذا تحدثت معها، إن أهملها دون عمد أو انشغل عنها، أو مشاحنة بينهما. لم تكن تعلم راندا وهي تقدح زناد أفكارها أن الفراق بين حنين وبجاد قريب إلى هذا الحد وإلا لم تكن لترهق نفسها في التفكير، كان رنين هاتفها ذات ليلة كمفعول قطعة من الثلج على جلد يحترق؛ عندما حدثتها حنين وهي تتنهف ونشيج البكاء يلاحق كلماتها، حاولت أن تهدئها لكنها لم تنجح، فذهبت إليها بسرعة لتعرف ما بها، عندما ذهبت إليها لم تكن حنين قد هدأت بعد، أعدت راندا لها فنجاناً من الينسون، وتأملتها في صمت حتى أنهت الفنجان. سألتها وهي تحاول كبت فضولها وإظهار تعاطف مصطنع:

- أخبريني يا حنين ماذا حدث؟

نظرت إليها حنين وقد تجمعت الدموع في عينيها مرة أخرى، وقالت:

- الحظ السيئ يلاحقني دائماً يا راندا، كلما ظننت أنه يصافحني بود أجده يجذبني بقسوة نحو الهاوية.

- ما هذه الألغاز يا حنين؟! أخبريني ماذا حدث.

- أخبرني بجاد اليوم أن هناك عداوة قديمة بين والدي ووالده، فيه تهرب من الضرائب أو استخدام نفوذ وما شابه.
سألتها راندا متعجبة:

- ولماذا لم يفصح عن ذلك إلا اليوم؟

- أنت تعلمين يا راندا أنني لا أتحدث عن والدي أبداً، بالصدفة تحدثت عنه اليوم، وكأني ضربت رأسه بفأس، أخبرني أن والده كان منوطاً بقضيتين تخصا والدي، رغم أنه كان يحاول انتقاء ألفاظه لتكون أكثر رقة إلا أنها كانت قاسية جداً، أو ربما كانت حساسيتي مبالغ فيها، ماذا أفعل يا راندا بالله عليك.. أخبريني..
عادت للبكاء مرة أخرى بحرقة، فاحتضنتها راندا لتواسيها ظاهرياً، بينما ما أضمرته في قلبها كان يشبه الاحتفالات لا تنقصها سوى الألعاب النارية والموسيقى الصاخبة، بعد أن هدأت قليلاً سألتها:

- لم تخبريني ما كان ردك على ما قاله.

نظرت حنين إليها وهي تستنكر السؤال ثم قالت:

- هل هناك كلام يقال؟! هناك قضايا تدخل والدي بنفوذه وأفسد عمل والده. انسحبت من أمامه على الفور.

وجدت راندا أن هناك فرصة جديدة لإبعادها عنه وحثها بشدة على أن تباعد عنه هي قبل أن يفعل هو، لم تتركها تلك الليلة وحيدة، تهدئها تارة وتشحنها تارة باعتبار أنها تريد الحفاظ على كرامتها وكبريائها، حاول بجاد التحدث معها، لكن كانت راندا بالمرصاد لأي لحظة حنين أو اشتياق تجتاح حنين، ونجحت راندا فيما خططت له، السيئون في بعض الأحيان تساعدكم الظروف لممارسة سوئهم.

ظل التوتر والصمت يسيطران على هشام منذ أن وقعت عيناه على دم عمر الذي أراقه في صمت، حتى أنه لم يترك مجالاً للفضول أن ينبت في داخله، بينما كان مصطفى يتثنى بين كل لحظة وأخرى ويرمقه بالنظرات، خاصة بعد أن ظل صامتاً أمام مدير السجن عندما سأل كل فرد في المهجع من أين أتى عمر بتلك الشفرة، لم يطل مصطفى صمته وذهب ليتحدث مع هشام، كان يريد أن يوقف وخزات ضميره بإسقاط كلمات التبرير في أذنيه، اقترب منه وهو ينظر بين الحين والآخر لخطوات قدميه على الأرض، وعندما وصل فراش هشام ربت على كتفه وكأنه يختبر تقبل هشام له، نظر إليه هشام دون أن يظهر على وجهه أي تعبير، جلس مصطفى أمامه ثم قال:

- كنت أحبه كثيراً.. وأأسفاه.

نظر إليه هشام ورفع حاجبيه مندهشًا، فاسترسل قائلاً:
- عمر ذو الأنف المعكوف، كان رجلاً دمث الخلق لم أرد له
هذا المصير قط.

نظر إليه هشام مرة أخرى ثم قال غاضبًا:
- إن كنت تختبر صمتي وتتساءل إن كنت سوف أشي بك،
فاطمئن لن أفعل لن أفعل..

أشاح بوجهه بعيدًا، ونظر في الفراغ ثم قال:
- يكفيك ما تشعر به فالنار تحرق حيث تسقط.
- أعلم أنك لن تفعل، لكنني أردت أن أتكلم، لربما أشعر
أنني غير مسئول عن مصرعه.

قال هشام وقد زاد غضبه:
- إن كنت غير مسئول عن مصرع ذي الأنف المعكوف،
فأنت حتمًا مسئول عن قتل أخيك.

ابتسم مصطفى بمرارة وجال بنظره في أطراف المهجع قائلاً:
- سأطلعك على سر آخر، قد يعلم كل من في هذا المكان
أني صاحب تلك الشفرة لكن لم ينطق أحدًا منهم بحرف واحد،
أتعلم لماذا؟

صمت لوهلة ثم أستطرد حديثه قائلاً:
- كلهم يعلمون أنني قتلت أخي، وقد يظن كل منهم سبب
غير الآخر، لكنهم جميعًا متأكدون أنني رجل بلا رحمة ولا

قلب. سكت الجميع لأنهم يخافون مني فمن لا يشفق على أخيه لن يشفق على غريب لا أحد يعلم أنني حرمت أخي من الحياة لأمنحها لغيره.

- هل تظن أن هناك نوايا حسنة في القتل؟ يقولون إن القتل لحظة، تنسلخ منك الإنسانية والرحمة وتفعل دون أن تشعر، بينما أنت خططت ودبرت وهداك تفكيرك إلى حرق روح أخيك.

هم واقفًا وقد تأثر بحديث هشام ثم قال:

- كما قلت النار تحرق حيث تسقط، مهما تحدثت لن تفهم

دوافعي وإن كنت تعلمها.

وقبل أن يخطو خطوة واحدة سأله هشام:

- هل تعلم لماذا قتل عمر نفسه؟

أدار ظهره مرة أخرى لهشام ثم قال:

- أخبرني عمر بسرّه، لكنني حقًا لا أعلم السبب، هل قتل

نفسه ندمًا أم حزنًا!

- ماذا تعني؟!

جلس مصطفى مرة أخرى ثم قال:

- حادث سير، كان هو وزوجته وابنه في طريقهم للعين

السخنة، صدمتهم سيارة نقل بضائع، نقلوهم إلى أقرب مشفى،

كان ابنه ينزف الدماء بشدة ولم تكن تملك المشفى الكثير من

أكياس الدم من زمرة دماء الولد، فطلب منهم عمر أخذ الدماء

منه إن كانت مناسبة، وبعد التحليل أخبره الأطباء أن دمه لا يتناسب مع دماء الولد، ولأن عمر كان طبيياً بطريقة ما عرف أن الولد لا يمكن أن يكون ابنه، جاء الموت كرحمة من عند الله مات الولد، جن جنون عمر من هول الصدمة وألم الفراق وبينما كانت زوجته ترقد بين الحياة والموت وفي لحظة لا يريها الله لأحد أطبق الرجل على أنفاسها وقتلها.

نظر هشام إلى فراش عمر وقد أشفقت روحه كثيراً على هذا الرجل المنكوب، ثم نظر مرة أخرى لمصطفى وقد تغيرت ملامحه وكأنه هرم سنين في لحظات، رفع مصطفى حاجبيه وقطب على شفتيه ونظر إلى فراش عمر ثم قال:
هناك أسرار من الأفضل أن تبقى أسراراً، وإن كشفت لا يأتي منها خير أبداً.

كان بجاد قد هدأ من اقتحام شريف له ومفاجأته بمعرفته أسرار لم يكن لديه علم بها، سؤال واحد كان يعصف بداخله ولم يستطع أن يصرح به لشريف لماذا اختارت حنين الفراق رغم أنه لم يفرضه اختياراً؟! لكن ثمة سعادة مختلفة شعر بها عندما أحس أنه لم يخرج من حياتها بعد، حتى وإن كان مجرد ذكرى تمر في خاطرها بين الحين والآخر، عندما سأله شريف بصورة مباشرة إذا كانت الغيرة هي سبب إصراره على اعتقال هشام رغم أن

الأدلة غير كافية، تملك الغضب منه وأجابه قائلاً:

- ما رأيك أن تعطني دورات تدريبية لأتعلم أصول مهنتي منك؟!

ابتسم شريف وابتلع غضبه قائلاً:

- أخبرتني حنين ذات مرة أنك بالرغم من أنك تمتلك قدرًا

لا بأس به من الثبات الانفعالي لأن طبيعة عملك تطلب ذلك،

إلا أن غضبك غير متوقع وغير محمود عقباه.

نظر إليه بجاد وقطب حاجبيه وقبل أن يتكلم استرسل

شريف حديثه قائلاً:

- أعلم أن حديثي مزعج لكنني أخبرك الحقيقة والتي لولا

أن ثمة شخص سيكون ضحية كتمانها ما كنت لأخبرك بحرف

نطقت به حنين، تلك الفتاة كانت تعاني من اضطراب حاد في

الشخصية قد يجعلها تلجأ للانتحار.

- لا تقل كانت.

- ليكن... ما زالت..

تقدم بجاد نحو شريف خطوة ثم قال:

- بما أن حنين حدثتك عني كثيرًا، فبال تأكيد أخبرتك أنني

يمكنني أن أكشف الكاذب بمجرد النظر إليه.

- نعم أخبرتني. وأنا أو من حقًا أن هناك أشخاصًا لديهم

تلك المهارات والقدرات الخاصة، لكن الأمر يختلف هذه المرة،

أنت لست طرفًا محايدًا.

أدركهم مغيب الشمس ولم ينته حديثهم، تجادل الاثنان كثيراً لكن لم يستطع أحد منهم إقناع الآخر، تأثر شريف قليلاً بحدس بجاد القوي والغموض والمفارقات التي تحيط بالحادثة، لكن لم يتأثر بجاد قط بالمنطق الذي غلف حديث شريف.

ركب بجاد سيارته وأدار محركها لتفاجئه موجات الأثير بصوت فيروز في تلك الأغنية التي لم تفارق أذنيه منذ ثلاثة أعوام، أفلت المقود من يده وثبت في مقعده وشرد في ذكريات المرة الأولى التي استمع فيها لتلك الأغنية، كان قد مر على القطيعة الأولى بينهم أكثر من أسبوع، وبالرغم من غضب بجاد من حديث حنين والذي شعر فيه ببعض من الابتزاز عندما أنهت المكالمة دون أن تعطيه فرصة للرد على كلامها، إلا أنه عندما سمع فيروز وهي تقول "أنا عندي حنين ما بعرف لمن" تذكرها وبقلبه حنين قد محى غضبه منها وحدثها على الفور.

كانت تنظر للهاتف وتشبع عينيها من رؤية اسمه على الشاشة، قد يحدث أنك من شدة شوقك لسماع صوت أحدهم، لا تحيب عليه إن هاتفك، ليس خوفاً من إذعان الشوق ولكن لرغبتك في أن تطول تلك اللحظات التي ترى فيها اسمه وتلحق به جملة "يتصل بك".

انتهى زمن الاتصال ولم تحب، صمت لثوان وهو ينظر إلى الهاتف ويفكر؛ ترى هل كان الحنين كاذباً؟ أم أن الحنين قد حان

لأن لم يبق شيئاً مما كان؟ أم أن الحقيقة أبسط من هذا وذاك وهي أنها لم تنتبه لصوت جرس الاتصال، وقبل أن يقفز على استنتاج منهم ويتشبث به جاء رنين الهاتف ليقف كل هذا العبث. أجابها مسرعاً:
- اشتقت إليك.

....-

- حنين؟

- أسمعك.

لمعت عيناه وابتسم ثم قال:

- هل استمعت يوماً لأغنية "عندي حنين".

- وهل لي ألا أستمع لأغنية تحمل اسمي.

صمتت لوهلة ثم قالت:

- هل ذكرتك الأغنية بي؟

- لا... بل أنتِ ذكرتني بها... أنا لم أتوقف عن ذكرك

لأتذكرك.

- وهل عرفت لمن؟

- ما هو؟

- ذاك الحنين!

- بالطبع. واعتذرت منها.

- ممن؟

- من فيروز. لأنها لم تعرف، وأنا من عرفت.

- وهل لك ألا تعرف. أنت محقق.
- كان يتحرك ذهابًا وإيابًا في جنبات الغرفة ثم توقف فجأة وابتسم لدعابتها وقال:
- أنت رائعة. حملتي عني عناء التفكير في شرح سوئي.
- ماذا تقصد؟
- جلس على مقعده وأراح ظهره للوراء ثم قال:
- لأنني محقق أذعر من الأسئلة التي ينتظر الآخر إجابتها، لا أحب أن يحشروني أحدهم في زاوية ما، أشعر أنه يسألني ليشير غضبي ويخرج ما بداخلي دون رغبتني.
- هممم... فهمت.. مثلما تفعل مع ضحاياك.
- ضحك بصوت عالٍ أبرز سعادته ثم قال:
- أترين أن المذنبين ضحايا؟!!
- لا.. ليسوا ضحايا في المطلق لكنهم ضحاياك... فالمهزوم يصير ضحية المنتصر حتى وإن لم يكن مذنبًا.
- صرت ضحيتك إذا.
- ابتسمت وتحركت خطوتان ثم وقفت أمام المرأة ونظرت لصورتها، وكأنها ترى نفسها بدت أجمل من اللحظات السالفة ثم قالت:
- هذا يعني أنك تعترف بأنك أذنبت.
- لا. أعترف أنني هزمت... لأنني عشقت.. أحبك حين.

وقعت تلك الكلمات على مسامع حنين أعذب ألف مرة
من صوت فيروز الذي غلف حديثهما، عذبًا لدرجة أنه كاد أن
ينتزع الآهات من صدرها، حلو، رقيق، مرجف وممتع حد الألم،
وذو شجن حد الدموع، كادت تشهق كمن يغرق في مياه محيط
متجمدة، لكنها تماكنت نفسها ثم قالت له بهدوء مفتعل:
- وأنا أحبك.

عاد شريف إلى بيته وقد انشغل باله كثيرًا ثقة بجاد في
حدسه، ورغم أنه كان يرى أنها مبالغ فيها نوعًا ما إلا أنه تأثر
به، بدأ يتذكر حديث حنين عنه عندما سألها لماذا هجرته عندما
أخبرها بما كان بين والده ووالدها، أجابته وقد فلتت من عينيها
دمعة قائلة:

- كان بجاد أنبل من أن يتخلى عني بسبب ذنب لم اقترفه،
هو رجل يقطع الوعود ولا ينكث بها، رجل لا تنطق عيناه إلا
بالصدق، وصمته أبلغ من كلامه. عنيد. صلب. انتزعته من
حياتي وشعرت أن هناك قوة كبيرة تغرس مخالبها في صدري
وتنتزع قلبي من بين ضلوعي بكل قسوة، دون أن ترأف بشراييني
وأوردتي التي اقتلعتها واحدة بعد الأخرى، والمؤسف أن هذه
اليد كانت يدي.

قال لها وقد شعر هو الآخر بالأسف:

- أمر طبعي يا حنين، فهي ليست تضحية تسهل على أي إنسان، أنتِ مثله تمامًا نبيلة.

ابتسمت بياس ثم قالت:

- لم أضح بالنبل الذي تحكي عنه، فأنا لم أستطع أن أقنع ذاتي العليا أن تتخلي عنه، فلكي يستمر في طريقه الأصلح كان عليّ أن أتخلي عنه. أدركت أن بقائي معه سيجلب يومًا يجعله يشعر بعبء وجودي بجواره، فلن يتقبل والده والدي، وربما يتماذى والدي هو الآخر ويرفضه، مهما كان عشقه كبيرًا، خسارته كانت ستكبر أيضًا وقد لا يستطيع عشقه الكبير هذا أن يواجهها، لم أرد له هذا الصراع ولم أرد أن أرى سقوط هذا العشق أمام عيني يوم بعد يوم. كما حدث مع والدي ووالدتي، حب بجاد لا يقارن بحب أبي وأمي، ورغم ذلك كنت أشعر بحزنه، تخليه عن دينه وأهله كان هاجسًا في حياتهما، كلما أطل ماضيه برأسه، في مكالمة مع جدتي، زيارة، ذكريات طفولته لم تعد مباحة له، رجل يعيش بلا ماضٍ لأنه أصبح رجلًا آخر. كنت أرى في عينيه اتهامات، لم تخرج للعلن، لكن يكفي أنها كانت موجودة.

رحلت، بل مت ولم أجد من يبيكني أو يرثيني، حقًا كان موتًا بلا بكاء.

دق جرس هاتف شريف ليقطع أفكاره، انطلق صوت الحاجة غالية لتخبره أن هناك ضيفًا ينتظره، كان هو، والد حنين،

لم تحب توقعاته التي أخبر بها باسل أن هذا الرجل سيأتي لمقابلته عما قريب، عاد مسرعًا إلى البيت. أقبلت عليه الحاجة غالية وحملت عنه حقييته ثم قالت:

- حمد لله على سلامتك يا بني.

- الله يسلمك.

ثم أخفض صوته قليلًا وسألها:

- أين هو؟

أشارت برأسها إلى غرفة الضيوف وهمست قائلة:

- ينتظرك منذ أكثر من نصف ساعة.

نظر في اتجاه الغرفة ثم سألها:

- هل شرب شيئًا؟

- نعم، فنجان قهوة، ولم يرد شيئًا آخر.

- سلمت يداك، حضري فنجانين آخرين وأحضريهما لنا.

دلف شريف الغرفة قائلاً:

- مساء الخير يا سيد إبراهيم، أعتذر لك عن التأخير.

أدار جسده ككتلة واحدة تجاه صوت شريف، ليدير ظهره

إلى النافذة الكبيرة المطلة على النيل قائلاً:

- أعتقد أن من عليه الاعتذار هو أنا؛ أتيت دون سابق إنذار.

- شرفني مجيئك..

نظر مرة أخرى تجاه النافذة وابتسم ثم قال:

- لديك إطلالة رائعة، وذوق البيت رفيع.
- ابتسم شريف وتقدم خطوتين ثم قال:
- أشكرك.. تفضل بالجلوس.
- جلس والد حنين على أقرب مقعد ثم جلس شريف في
- مقابلته صمت الاثنان لوهلة ثم قال والد حنين:
- يبدو عليك الإرهاق، لذلك سوف أدخل مباشرة في
- الموضوع.
- أرجو ذلك، ليس لأنني متعب، لكنني أفضل الطرق
- المختصرة دائماً.
- علمت أنك كنت في النيابة اليوم.
- غضب شريف عندما سمع منه ذلك وقال بنبرة حاسمة:
- أتراقبني؟
- حاشا لله، لكن المحامي هو من أخبرني، كان هناك يتابع ما
- يحدث في التحقيقات.
- ليكن.. ماذا تريد الآن؟
- قاطعتها الحاجة غالية ووضعت فنجان القهوة ثم خرجت
- من الغرفة وأغلقت الباب.
- مد شريف لوالد حنين الفنجان وأخذ الفنجان الآخر،
- ارتشف والد حنين رشفة من الفنجان ثم وضعه أمامه على
- الطاولة ونظر إلى شريف قائلاً:

- أعلم أنك غاضب مني وتظن أني أبا سيئًا ويفضل نفسه
وسمعتة عن راحة ابنته.

- بل عن حياة ابنته.

- نعم.. نعم.. عندما أخبرتك أني عرفت أنك كنت في النيابة
اليوم لم أقصد الضغط عليك ولا مساومتك على شيء، ترددت
كثيرًا قبل زيارتك، لكنني رأيت أنه حان الأوان لأخبرك بكل
شيء، السر الذي احتفظت به سنوات وسنوات لابد أن ينكشف.
عقد شريف حاجبيه متعجبًا ثم قال:

- أي سر؟

- السر الذي أخفيته عن حنين وكنت قد أوشكت على
كشفه في جلساتك معها. لذلك كان عليّ أن أمنعها.

- ما هو هذا السر؟

- في بعض الليالي كانت تستيقظ حنين فزعة من نومها،
تخبرني أنها ترى نفسها تقتل أمها.

- ربما كانت تحمل نفسها ذنب انزلاق أمها لأنها كانت معها
- تلك الكوابيس كانت قبل وفاة والدتها، على فترات متباعدة.
عقد شريف حاجبيه متعجبًا، ثم قال:

- كيف ذلك؟ لماذا؟

- الأخطر من ذلك، في تلك الليلة المشؤومة التي ماتت فيها
زوجتي، كانت تتمتم حنين بكلمات وهي بين الصحوة والغفوة،

أنها قتلت والدتها.

عقدت الصدمة لسان شريف عندما سمع ذاك الكلام وظل يحملق، ثم شرد قليلاً فيما تذكره منذ قليل من حديث حنين عن والديها.

استطرد حديثه قائلاً:

- نعم ما سمعته حقيقي، ليس توقعاً ولا استنتاجاً مني هذا ما حدث.

كانت أنفاس شريف داخل صدره لا تخرج ظلت حبيسة، وهو يربط بين ما قالت حنين وما أخبره به والديها للتو لم تعقد المفاجأة لسانه فقط بلا حبست أنفاسه أيضاً، لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة، ساد الصمت بينهما لفترة وجيزة قبل أن يسترسل والد حنين حديثه وقد ملأت الدموع عيناه قائلاً:

- عندما رأيت الدماء تتدفق من رأس زوجتي، كبلت الصدمة أطرافني، كانت حنين ترقد بجوارها فاقدة للوعي تماماً، وعندما عادت إلى وعيها لم تنفك من قول "قتلتها.. قتلتها". فعلت كل ما كان في استطاعتي لأمحو من ذاكرتها تلك الحادثة، فعلت كل ما في وسعي؛ غيرت البيت وانتقلنا إلى المقطم وبعد عام سافرنا إلى إنجلترا.

- وهل تعتقد أنك نجحت في أن تجعلها تنسى؟

- نعم، والدليل أنها كانت تسألني بين الحين والآخر عن

سبب موت والدتها.

- إنكار.

- إنكار؟! ماذا تقصد.

- ما فعلته لم يكن إلا نقل الحادثة من عقلها الواعي إلى اللا

وعي، كانت تسألك باستمرار عن سبب موت والدتها لكي
تدعم لها فكرة أنها لم تفعل.

نظر إليه والد حنين بغضب ثم قال:

- أنت من فعلت.. جعلتها تتذكر ما حدث.

ابتسم شريف مستنكراً:

- الأطفال يا سيد ابراهيم يشعرون أكثر من الناضجين

بالمشاعر غير المصرح بها كالحب، والغضب، ابنتك كانت تشعر
أن الحياة التي تركتها وراءك بزواجك من والدتها لم يختف ظلها
عنك وبقي دوماً بينك وبين زوجتك، وهو ما أحست به حنين.

- أنت مخطئ... كنت وما زلت أحب زوجتي، والدليل أنني

لم أتزوج إلى أن رحلت.

- لم أقل غير ذلك، لكن لا يمكنك أن تنكر أنك كنت تشعر

في بعض الأحيان أن هذا الحب عبء عليك، أبعدك عن هويتك
وعائلتك، فضلاً عن اختلاف الخلفية الاجتماعية والثقافية بينك
وبينها، ربما لم تصرح بذلك لكن هذا ما شعرت به ابنتك وجعل
تلك الهاوية والمأساة تتجسد في خيالها في أمها، مؤكداً أنها لم تقتلها

كما تظن، لكنها سعدت بذلك، وأرادت التقرب منك بتصريحها لك بأنها قتلتها، لكن فيما بعد ندمت على هذا الشعور وهو ما سبب هذا الاضطراب الذي حدث لها، لم تسامح نفسها قط وهو ما يفسر التصرفات الشاذة التي كانت تحدث لها في تلك الليالي التي تشبه ليلة مصرع والدتها.

كان والد حنين يستمع لما يتفوه به شريف بأذان مصغية، لم يرف جفنه، كلام شريف كان صادمًا لكنه أنار عتمة عشت داخله منذ سنين وانسجت خيوطها كالعنكبوت، أنهى شريف كلامه وظل والد حنين يحملق في وجهه دون أن ينطق بكلمة، فأردف شريف قائلاً:

- فضلاً عن التأثير السلبي لوالدتك.

- والدتي؟!!

- نعم...

صمت قليلاً ثم نهض من مقعده وذهب إلى مكتبه، ثم عاد إليه وفي يده دفتر صغير.

- تفضل.

- ما هذا؟

- اعتقد أن تسمع من ابتك بنفسها ما لم تبح به إطلاقاً لأحد،

حتى أنها لم تستطع أن تحكي لي، ولذلك طلبت منها أن تكتبه.

أخذ منه الدفتر، واتجه إلى الباب ثم نظر إليه مرة أخرى قائلاً:

- لست كبيراً على الخطأ، وربما أهملت ابنتي، وقد أكون سبباً مباشراً فيما حدث لها الآن، واقسم لك أني أنال عقابي كل يوم، ولذلك أرجو منك ألا تساعد من فعل ذلك بابنتي في أن يفلت من عقابه.

مد يده ليسلم عليه ثم قال:

- أعدك بذلك.

في اليوم التالي ذهب بجاد إلى مكتبه، وبدأ يدقق مرة أخرى في تقرير الطب الشرعي الخاص بحنين موضوعاً على مكتبه، وبعد دقائق قليلة دخل عليه رئيس النيابة وهو يحاول إخفاء غضبه، جلس على المقعد المقابل للمكتب، ثم وضع يده على المكتب ثم بدأ يطرق على الخشب بأنامله واحداً تلو الآخر ثم اعتدل في جلسته قائلاً:

- لا تتعب نفسك أكثر في قراءة التقرير، الأمر واضح، يرجح الطبيب الشرعي أن الحادث انتحار معللاً ذلك بالندبات التي وجدها في ذراع المجني عليها والتي تشير إلى تكرار محاولاتها لإحداثها جروحاً في أوقات سابقة في مناطق متفرقة.

- اعلم ذلك، لكن هناك أمراً لم تنتبه له في التقرير.

نهض من مقعده وجلس على المقعد المقابل لرئيس النيابة ثم

قال له:

- التقرير أشار إلى أن هناك جرحين في اليد اليمنى، أي أنها قامت بهذا الجرح بيدها اليسرى، وأكد أنه لا يوجد آثار لجروح سابقة في هذه الذراع.

- وما الغريب في ذلك؟

صمت بجاد وظل يحرك عينيه يمينًا ويسارًا، كان لديه تفسيرًا منطقيًا لذلك، لكنه لم يستطع التصريح به.

لم يستطع رئيس النيابة كبت غضبة أكثر وقال بنبرة عصبية:

- بجاد!!! هل ما زلت تجادل.. الطبيب الشرعي يرجح

الانتحار وأنت ما زلت تبحث عن جان...

ألقى أمامه الصور التي تم التقاطها للحادثة ثم قال له:

- انظر جيدًا ستجد أن السجادة مبعثرة والأرجح أنها فقد

وعيها وسقطت وارتطم رأسها بالأرض.

- يا ريس أنا لا...

- لن أسمع منك أكثر...

- أرجوك. اسمح لي أن أنتدب طبيبًا شرعيًا آخر، أثق فيه

جدًا وقد كشف لنا في مرات سابقة عن أشياء لم نلاحظها من قبل.

- أكاد أجن من إصرارك المستميت ألا ترى أنها حادثة

انتحارًا... لولا أنني أعرفك جيدًا لقلت إنك لا تريد أن تعترف

بأنك مخطئ.

- أعدك أنني لن أجدد احتجاج هشام بعد انتهاء مدته حتى

لو لم يأت التقرير الجديد.

بدأ غضب رئيس النيابة يهدأ قليلاً، وشيء من اللين يغزو ملامحه، أطلق تنهيدة طويلة ثم نظر إلى بجاد قائلاً:
- أثق في وعودك... لطالما التزمت بها. أفعَل يا بجاد ما تراه صواباً.

ابتسم بجاد بحذر، فقد بدأ القلق يعرف طريقاً إلى نفسه. خرج رئيس النيابة. وعلى الفور تحدث مع الطبيب الشرعي وطلب منه الإسراع في كتابة التقرير، ثم عاد ليطالع التقرير مرة أخرى ويقرأه بحرص وتركيز شديد.

دخل والد حنين الفندق حاملاً في يده حزمة الأوراق التي أعطاه إياها شريف. بدا على ملامحه القلق والخوف، لا يعلم ما ينتظره فيها بعد أن بث شريف الخوف في سريرته.
وضع نظارته وبدأ يقرأ ما سطرته حنين بيدها.

عندما اقترح دكتور شريف أن أكتب ما عجزت عن البوح به في جلستنا، وجدت نفسي أفكر في أمرٍ غريب، "من أخاطبه؟" هل أخاطب طبيبي لأنه هو من سيقراً، أم أخاطب نفسي؟ أم الآخرين؟ هؤلاء الذين لا يعرفونني ولن يصدرُوا عليَّ أحكاماً، لا أتوقع منهم أن يفهمونني بسهولة فاستطرد في الشرح، وليسوا على دراية بما حدث معي فأخبرهم بكل شيء؛ فهم لم يكونوا يوماً

طرفاً في قصتي.

لا أذكر من طفولتي الكثير، فقد بالغ والدي وبذل قصارى جهده لكي يمحو من ذاكرتي السنوات القليلة التي سلفت ذهابي إلى إنجلترا، كل شيء يبدو بعيداً تتكشف عليه الغيوم، ضبابياً لا ملامح فيه، مهتزاً لا ألوان فيه سوى اللون القرمزي؛ إنه نجم حياتي، لون أيامي، حجرتي الصغيرة، نصيبه كنصيب الأسد من الغنيمة، في ملابسي وملابس دميّاتي، حقيبتتي الصغيرة، فراشي الحريري. كان أيضاً لون تلك الليلة التي على إثرها تغيرت كل حياتي. كان القرمزي في أوج تجلياته، تلك الليلة التي انسكبت فيها دماء أمي وخسرتها للأبد. كلما تذكرت تلك الليلة، أو رأيت القمر مكتملاً في السماء؛ أسمع صغيراً في أذني يهز كياني. يبدد تفكيري. يشّت ذهنني. فيما بعد أسمع صراخاً عالياً. أصواتاً مخيفة. أشعر أنها تقصد تعذيبي. أمذنبه أنا؟!

أشعر دوماً أن أمي ماتت بسببي أنا السبب في دمها الذي أريق على الأرض. أعلم أن الشعور بامرٍ ما ليس كافياً لإثباته، لأنني لا أذكر ماذا حدث ولماذا. اليقين في هذه الحالة المبنية على شعور بلا دليل يكون مرهقاً بشدة تماماً كالشك والإنكار، لكن هناك بعض الأحاسيس يكون لها سطوة تضاهي اعتراف مذنب بجريمته؛ تتلبسنا بعزم فيضحى تجاهلها أو إغفالها أمراً مستحيلاً. كلما حاول والدي أن يُنسيني تلك الليلة وما حدث فيها،

كان يثير ذاكرتي. يخلص يقيني أكثر، أصبح الليل والقمر المكتمل بوابة عبور تلك الأفكار والمشاعر المرتبكة. والخوف. بات الأمر هاجسًا يزداد ضراوة كلما مر الوقت. كان الأمر مربكًا أكثر حين تابعت الأمر وقرأت أن العنف والأنشطة الإجرامية تزداد نسبتها عندما يكون القمر مكتملاً، أصبح السؤال أكثر تعقيداً؛ هل هذا معناه أنه يستوجب وجود نزعة إجرامية أو دافع يسيطر علينا واكتمال القمر يجعلنا أكثر جرأة فننفذها؟ أم أن لاكتمال القمر قوة كافية مسيطرة تستدعي الشر في داخلنا دون مبرر؟ أم أنه فقط يذكرني بدماء أُمي ومصرعها أمام عيني؟

عامان كاملان مرا، اعتقد فيهما والدي أنه نجح في الاستحواذ على ذاكرتي، باتت أسئلتني له غير مجدية. توقفت عن السؤال، وعندما فعلت ظن أن الأمر انتهى ولم يكن يدري أنه قد بدأ.

كانت عينا والد حنين تجحظا تدريجياً مع كل سطر يقرأه، توقف عن القراءة وتناول بعض الماء، بدأ يشعر بسخونة في جسده، وضع الأوراق على الطاولة، ثم أمسك بجهاز التحكم الخاص بالمكيف وعدل درجاته ليزيد تبريده، ثم أخذ نفساً عميقاً وأمسك بالأوراق مرة أخرى وبدأ يقرأ مرة أخرى.

لم ينه والدي أعماله في مصر، لكنه قرر أن يباشرها من لندن وأخذني معه وهو يحفزني ويعشمني بأني سأجد أمًا لي في أمه " جدتي أبيجايل " أو "أبي".

عندما رأيتهأ أول مرة ارتعبت منها، امرأة شمطاء، جهومة الوجه، تشبه تلك العجوز التي تمطي المكنسة وتطير بها في حواديت الأطفال، عيناها واسعتان ومستديرتان كعيون البومة، أنفها طويل ومدبب كإبرة الحياكة لها فتحتان ضيقتان كعروة قميص رقيق، شعرها رمادي تتخلله بعض الشعيرات السوداء التي تركها الزمان لها لأدرك أنها كانت شابة في يوم ما.

نظرت لي نظرة كالوعيد وهي عاقدة ذراعيها تحت صدرها، من اللحظة الأولى قايضت على براءة طفولتي بقسوة غير مبررة سوى أنها كرهت من أنجبني؛ لأنها جعلت والدي يتخلى عن سلالته المصطفاة وفضل امرأة منحطة السلالة لتكون زوجته، لم أحتج سوى شهوًّا قليلة لأفهم أنها تكره النساء، كل النساء، ربما لو وضعتني أُمي ذكرًا لكان تغير في الأمر شيئًا.

بعد أن شعرت غالية أن ضيف شريف قد خرج، خرجت هي الأخرى من غرفتها لترى إن كان شريف يريد منها شيئًا قبل أن تخلد إلى النوم، وجدته يقف أمام باب الشقة ويضع يديه في جيبه. وقفت تنظر إليه لوهلة، لكنه لم ينتبه لوجودها. نظرت إلى الباب وتقدمت خطوتان ثم قالت له:

- هل تفكر في الخروج الآن؟

أجابها دون أن ينظر إليها:

- لقد فعلت شيئاً خاطئاً.

عقدت حاجبيها تعجباً ثم سألته:

- ماذا فعلت يا ولدي؟

نظر إليها مبتسماً ثم قال:

- الحقيقة هما شيئان، أعطيته شيئاً لا أعلم إن كانت صاحبتـه

سترضى عن ذلك أم لا، والأمر الآخر أنني أحتاج ما أعطيته إياه

اقتربت منه ثم سألته:

- ألا يمكنك استرجاعه.

أوماً برأسه بالسلب، ثم نظر إليها وابتسم، اقتربت منه

ووضعت يدها على كتفه ثم قالت:

- لا تقلق، أصحاب النوايا الحسنة، أفعالهم تشبه نواياهم،

حتى إن لم يستحسن الآخرون ما يفعلونه، سيحدث ربك بهذه

الأفعال شيئاً حسناً.

نظر إليها وقد أصابه شيء من الإحباط ثم قال:

- أخشى أن أكون أردت سوءاً.

ربت على كتفه ثم قالت:

- أنا لم أوصل النوايا الحسنة بالأفعال؛ بل لصقتها بأصحابها.

ربما أمراً لا تدركه الآن. الجيدون يا حبيبي أعمالهم تشبههم، بينما

السيئون ليس بالضرورة أن تشبههم أفعالهم، وإلا كنا لتتعرف

عليهم بسهولة. اطمئن.

نظر إليها شريف ثم ابتسم رغماً عنه لكي لا يقلقها أكثر من ذلك ثم قبلها في جبينها وطلب منها أن تنام.

جلس على مقعده المفضل المقابل للشباك المطل على النيل، وأخذ يتذكر بع مما كتبه حنين في تلك الأوراق. يتذكر تارة ويلوم نفسه تارة أخرى، وبين هذا وذاك غلبه النوم وراح في سبات عميق، ثم ظهرت عينيان كبيرتان تبدو باسممة، يملؤها الأمل. ترمش كثيراً، وتتحرك بسرعة يميناً ويساراً، ثم جاء صوت من بعيد يردد كلاماً، مألوفاً؛ "لقد حلمت دوماً بموت رائع، بقدر ما عشت حياة فارغة، حلمت أن يكون صاخباً. محزوناً. موحجاً. يبكيني الجميع. موت ذو رهبة، كأن يقتلني أحدهم، أو أن أملك ذات يوم بسالة قتل نفسي. أتمادى كثيراً في رغباتي؛ كأن يكون لدي رفاهية اختيار الزمان والمكان ومشهد النهاية"، فجأة انطلقت صرخة مخيفة، كأنها استغاثة، تغيرت نظرات تلك العيون وأصبحت حزينة، ثابتة لا تتحرك، وفجأة سقطت قطرة دماء منها.

انتفض شريف من نومه، وجال بعينه حول المكان. ثم نظر إلى جلسته وملابسه التي لم يبدلها، وأدرك أن النوم قد باغته وهو يفكر، ثم بدأ يفكر في تلك الكلمات التي ترددت في حلمه، ظن أنه قرأها في أوراق حنين، الأمر كان عادياً؛ أن يغفو وهو يفكر في شيء ما، فتسلل بعض الأفكار من اللاوعي وتحرش بذاكرته

وترسل إليها باقة من الخواطر الذهنية، لإثارة عقله. منطقتاً فيما حدث، لكن ما شغله هو الكلام ذاته، لماذا تذكر هذا الكلام بالذات. كان يشعر بقلق شديد. الصدفة ليس لها حضور في هذا. أحاديث طويلة بينه وبين نفسه؛ لماذا لم يتوقف عند هذا الكلام من قبل، لماذا لم يتجادل معها فيه؟ هل تحول الأمر الذي تحدثت عنه إلى هوس؟ وأي أمر فيهم القتل أم الانتحار؟! هل نالت حين ما أرادته؟!

في خضم هذا العصف الذهني، دق جرس هاتفه. نظر في الشاشة وجده رقماً مجهولاً، أجاب عليه فانطلق صوتاً عالياً لم يستطع تمييز إن كان صوتاً يعرفه أم لا من شدة هياجه وغضبه. اضطر أن يصرخ فيه ليصمت قليلاً ثم سأله بنبرة غاضبة " أنت؟".

- أنا بجاد. أين أنت؟

صمت شريف لوهلة وبنبرة أقل حدة أجابه قائلاً:

- في البيت ومتجه إلى العيادة الآن...ماذا حدث؟ لما كل هذا الغضب؟

- ماذا حدث؟! أتراوغ إذا! على كل الأحوال ستعرف.

أغلق الخط. ظل شريف واقفاً في مكانه وهو ينظر إلى الهاتف متعجباً ويتساءل؛ " لماذا كل هذا الغضب؟! هل علم بأمر تلك الأوراق؟! لكن لما يفعل والد حين هذا الأمر؟".

أخذ نفسًا عميقًا ثم ذهب إلى غرفته ليبدل ملابسه ويتوجه إلى العيادة، وما زالت تلك الأسئلة تدور في رأسه كما تدور الفراشات في الهواء.

ركب سيارته وقد تملك منه إحساس قوي بأن شيئًا ما سيئًا سيحدث، أو ربما يكون حدث بالفعل. ذكره هذا الإحساس بكلام حنين معه في آخر مرة قابلها.

- أشعر دائمًا أن هناك شيئًا ما سوف يحدث. وكلما طال انتظاره.. كلما زادت خطورته

- خائفة؟

- حذرة.

- تأملين في شيء؟ أو ربما أحد؟

- يؤلمني أن يأمل في أحد.

- تبحثين عن شيء؟

- عن المجهول.

- متى تشعرين أنك قوية؟

- عندما أصل إلى ذروة الضعف.

بدأ يشعر بما كانت تشعر به حنين، قلق، حلقة ما مفقودة في سلسال طويل معقد. فجأة وجد نفسه تجاوز العيادة وما زال منشغلًا بالتفكير، تراجع إلى الوراء أوقف السيارة وصعد إلى العيادة، ليكتشف المجهول الذي جاء إليه دون أن يبحث عنه.

كان بجاد قد وصل بالفعل وينتظره في غرفة الاستقبال، مد يده ليصافحه. كانت ملامح بجاد تنضح بالغضب والغيط، وفي مصافحته أيضًا، تدارك شريف الأمر وأدخله إلى غرفته وأغلق الباب.

مرت ليلة والد حنين أكثر صعوبة ومرارة من تلك التي مر بها شريف، لم يكن ليتوقع أبدًا أن كل هذا التشتت الذي عاشته ابنته وسطرته في أوراقها، شعر أنه لم يعرفها قط، رغم أنه لم يكمل بعد تلك الأوراق خوفًا من أن يقرأ ما يصدمه ويحزنه أكثر، لم يستطع أن يطبق جفنيه على بعضهم البعض، تخلى النوم عنه؛ كما تخلى هو عن ابنته، شعر برغبة ملحة في أن يراها، أن يمسك يدها، أن يقبلها في جبينها، أن يربت على كتفها المرهق من حمل أثقالٍ أنهكتها وأضعفتها لم تكن تحتاج أكثر منه "كيف حالك؟"

ذهب إلى المشفى ودخل غرفتها، حاملاً في يده أوراق حنين، نظر إليها، وأطال النظر، شعور آخر يختلج صدره، مختلف كليًا، الشعور بالخوف من فقدان عزيزٍ مليء بالمرارة، والشعور بالذنب تجاه غريب قد يكون أشد مرارة؛ لكن اجتماع هذان المران، مدمى، مدمر، مزمن، الوقت لا ينهيه أبدًا، فهو غير قابل للنسيان أو التجاهل.

لم يكن يبكي، لكن بين الحين والآخر عندما تمتلئ مقلته بالدموع تسقط قطرة على حين غرة، فجأة سقطت دمعة من عين حنين، ثم رف جفنها دون أن تفتح عينيها، استجمع قوته ونظر

إليها مرة أخرى وراح يناديها وهو يمسك يدها بقوة. أصابته حالة من الذعر والفرح في وقت واحد، كان يضغط على جرس المساعدة دون توقف، ثم أسرع وفتح الباب وهو ينادي على دكتور باسل، دخل باسل غرفة حنين وخلفه والدها يروي له ما حدث، كانت حنين ما زالت غائبة عن الوعي ولم تفق من غيبوبتها، بعد أن فحصها باسل نظر إليه بخجل وأخبره أن ما رآه منها حركات لاإرادية، سمع حديث باسل وهو ينظر إليه تارة وينظر إلى حنين تارة أخرى وعندما أنهى باسل كلامه كان الإحباط قد تملك منه وأسقطه على المقعد رغماً عنه، فاقرب منه باسل قائلاً:

- أنا آسف.. كنت أتمنى أن أخبرك بما تتمناه، لكن رجاءً لا تفقد الأمل.

- وهل أملك غير الأمل يا دكتور؟!

- أتمنى أن تظل ممسكاً به، وظائفها الحيوية طبيعية، لذلك أرجح أن هذه الغيبوبة لها علاقة بالصدمة النفسية والتجربة السيئة التي عاشتها، لذلك شفائها قد يحدث في أي وقت.

نظر إلى حنين قبل أن يخرج من الباب وهو يقول " أتمنى أن تتذكر ما يجعلها تمسك بالحياة".

أمسك والد حنين الأوراق مرة أخرى وبدأ يستكمل القراءة حيث توقف.

ظل بجاد وشريف يتبادلان النظرات بصمت لَبِك، أحدهم ينظر إلى الآخر بغضب شديد، والآخر ينظر إليه بحيرة، وكأن تلك المشاعر التي سيطرت عليهم جعلتهم صامتين، ولأن صاحب الحيرة أقل صبرًا من الغاضب لأنه لا يملك تفسيرًا لحيرته ويحتاجه؛ بادر شريف وقطع هذا الصمت وقال:

- ماذا حدث؟

أجابه بجاد وغضبه ما زال في محله:

- سأخبرك طالما أنك ما زلت تراوغ، تم سحب قضية حنين مني.

- لماذا؟

أجابه وقد زاد غضبه:

- ما زلت تسأل؟! أنت من فعلت، أرسلت خطابًا للمحامي

العام لتخبره أنني كنت على علاقة بحنين.

قطب شريف حاجبيه مندهشًا وصمت لوهلة ثم قال:

- لا.. أنا لم أفعل.

أجابه بجاد بنبرة سخرية وتهكم قائلاً:

- تمام... طالما قلت إنك لم تفعل عليّ أن أصدقك..

صمت لوهلة ثم أردف قائلاً بلهجة أكثر تهكمًا وتخلل كلامه

ضحكة ساخرة:

- لا أحد يعلم غيرك بهذا الأمر.. لكنك تقول إنك لا تفعل،

إذا أنت لم تفعل.

- يا لك من مزوح!
- نظر إليه بجاد بغضب شديد وهو يضغط على فكه قائلاً:
- أنت من تمازحني وتراوغي.
- ابتعد شريف خطوتين للوراء ثم قال:
- لماذا إذاً لم أفعل عندما رأيتك للمرة الأولى في النيابة وعرفتك.
- لأنك لم تكن قد تأكدت بعد.
- أخذ شريف نفساً عميقاً ثم قال:
- سيادة النائب.. أنا لا أكذب...وأعتقد أن من السهل عليك أن تعرف من أرسل تلك الرسالة.
- جلس بجاد على المقعد ووضع يده على رأسه ثم قال بإحباط شديد:
- أنت لا تعلم معنى ما حدث.
- بلى أعلم.. لكنني أرى معنى آخر غير ما تراه.
- أجابه مبتسماً والإحباط ما زال يملأ تعبيرات وجهه:
- ما هو؟
- تحرك بحماس تجاه المقعد المقابل لمقعد بجاد وجلس ثم قال:
- هناك شخص يعلم ما كان بينك وبين حنين، ويريد إبعادك عن القضية علينا أن نفكر من هو..
- أنا لم أحك عن حنين لأحد قط، لا أصدقاء ولا أهل.

- لكن حين حكت.
- نعم. حكت لك.
- ابتسم شريف ثم قال:
- وراندا صديقتها.
- صمت شريف قليلاً ثم سأله:
- أنت حققت معها أليس كذلك؟
- نعم لكنها لم تقل شيئاً يثير شكوكي فلم...
- لا.. لم أقصد ذلك.. بالتأكيد تركت رقم هاتفها أليس كذلك؟
- طبعاً.
- إذا أرسله لي وأنا سأعرف لماذا فعلت ذلك.
- قال بجاد ساخرًا:
- يبدو أن دور المحقق يروقك!
- ابتسم شريف ثم قال:
- ظهورك في الصورة لن يفيد إن لم يضر، خاصة إن كانت هي فعلاً من فعلت ذلك سيتعقد الأمر إن ذهبت وتحدثت معها ربما تقدم شكوى فيك، ثق في، أعدك أنني سأعود لك بكلام ذي جدوى.
- وافق بجاد على اقتراح شريف، في النهاية لم يكن هناك شيئاً يمكن أن يقوم به بعد سحب القضية منه، وظهوره في الصورة سوف يُعقد الأمر، كان شريف على حق.

بعد أن عرف محامي هشام أن وكيل النائب العام المكلف بالقضية تم تغييره، انشرح صدره، هو مدرك تمامًا أن الأدلة لم تكن تكفي لاحتجاز هشام، وأن تجديد احتجازه لأربعة أيام لحقت بالأربعة أيام الأولى، كان إجراء تعسفي. أصبح إخلاء سبيله شبه أمر واقع.

حاول المحامي التأثير على النائب الجديد والحديث عن بجاد وأن اعتقال هشام لم يكن إجراءً صحيحًا، لكنه لم يعطه فرصة قائلًا:

- سأتركك مع موكلك قبل أن أبدأ التحقيق.

- فقط أريد أن أذكرك أن اليوم الرابع للفترة الثانية من

الحبس الاحتياطي غداً.

نظر إليه بغضب ثم قال له بتهكم:

- شكرًا لك.. لم أكن لأعلم لولاك.

امتعض المحامي من تصرف وكيل النائب العام وبدأ يظن أنه سيكون متعنتًا كمن سلفه، دخل هشام الغرفة، وجهه شاحب، مرهق، لم يتعاف بعد من حادثة الانتحار التي شهدتها، جلس على المقعد المقابل للمحامي ونظر إليه ولم ينطق بكلمة واحدة، الكلام أيضًا أصبح مرهقًا بالنسبة له، رؤية الناس، سماع المجند عندما ينادي اسمه، الأسئلة المكررة والإجابات المكررة، كل شيء مجهود حتى جملة "كيف حالك؟" التي يسمعها من المحامي

لمدة أسبوع.

- كيف حالك يا هشام؟

ابتسم هشام بسخرية ثم قال:

- ألم تمل بعد من هذا السؤال؟

- هشام أعلم أنك تحملت كثيرًا، لكن بقي القليل، إن كان

هناك تعنت من الوكيل السابق أعتقد أن تغيره يعني الكثير.

سأله هشام مندهشًا:

- هل تغير قاضي التحقيق؟ لماذا؟

- سبق وأن قلت لك أن قرار احتجازك تعسفي، وفي الغالب

تدخل والد حنين لتكدير عيشك، لأنه يعلم أنك ستحصل على

البراءة من المحاكمة الأولى، لكن يبدو أن هناك تطورًا أكبر من

السيد إبراهيم وتغير قاضي التحقيق، لا تقلق ستخرج من هنا في

أقرب وقت وقبل المحاكمة.

- أتمنى ذلك.

أمسك شريف هاتفه ونظر بشروء إلى رقم راندا الذي أرسله

إليه بجاد، كان يفكر في طريقة ذكية يتحدث بها إلى راندا لكي

لا تتهرب من الإجابة أو تلجأ إلى الكذب، هداه تفكيره إلى أن

يطلب أن يراها ويتحدث معها وجهًا لوجه، فقد يمكنه الوصول

إلى أكثر مما يريد بالنظر إلى تعبيرات وجهها ولغة جسدها.

حدثها وعرفها بنفسه، ثم أخبرها أنه يريد لها في أمر مهم يخص حنين ولأنه أدرك تمامًا أنها فضولية ألمح لها أنه يريد أن يخبرها عن أمور تخص حنين، أخبرته أنها في عمل في القلعة وإن لم يكن لديه مانع فيمكنه أن يأتي إليها ويتحدث معها هناك، وافق شريف وذهب على الفور.

هذه القلعة، تلك المساحة البيضاء العريضة العالية التي منحت الجبل هبة وجلالًا ووقارًا، أخفت وما زالت تخفي الكثير من الأسرار، مؤامرات حيكت، أعداء تناثروا وتناحروا، أثر الأقدام التي وطأت أرضها عددها يفوق عدد حبات ترابها، ربما لم يكن يعلم القائد صلاح الدين الأيوبي عندما فكر في بنائها أنها ستكون مسرحًا لجرائم كثيرة بعضها خباها التاريخ والبعض الآخر لم يتوار كثيرًا.

كانت راندا تحمل الكاميرا وتلتقط بعض الصور تراقب المارة بحرص لكي لا تغفل عيناها وصول شريف، عندما وصل تركت من حولها وهرولت إليه بسرعة.

- لم تتأخر.

- كنت في العيادة، والحمد لله لم يكن الطريق مزدحم.

ابتسمت إليه وقد ملأ الفضول نظراتها، ثم قالت:

- أصمم موقعًا خاصًا بشركة سياحية، أرسلت الكثير من

المصورين لالتقاط.

صور للأماكن الأثرية، لكنها لم تعجبني، كان عليّ فعل ذلك بنفسني.
وقبل أن يتحدث شريف بكلمة أقبل شاب تجاههما قائلاً:
- أستاذة راندا، لقد قمنا بترتيب كل شيء كما طلبتي.
- رائع، أنا قادمة.

نظرت إلى شريف ثم قالت له.

- أعتذر منك سأعود بعد عشر دقائق، يمكنك الانتظار
هناك عند الطاولة الموضوع عليها الكمبيوتر إنها خاصتي.
تركته وذهبت لتكمل عملها، تجول شريف بعينه في المكان،
ثم ذهب إلى الطاولة وجلس على المقعد الموضوع أمامها، كانت
شاشة الكمبيوتر مفتوحة يظهر فيها صور القلعة التي التقطتها،
فأخذ ينتقل بين الصور ويشاهدها باهتمام، فجأة جحظت عيناه
وأخذ يحملق في صورة ليس لها علاقة بالقلعة، لم يتوقع أن الإجابة
على أسئلته تأتيه بتلك السرعة وبهذه الطريقة ودون تحمل عناء
طرحها، أخرج هاتفه واتصل ببجاد ليخبره بأن ما توقعه كان
صحيحاً، لم يكن يعلم أن لدى بجاد مفاجأة أخرى.

- بجاد لقد وجدت شيئاً لن تصدقه، كما ظننت يبدو أن
راندا تخفي شيئاً ما.

- ماذا وجدت؟

- لا يمكنني التحدث الآن، سأراك بعد أن أتركها.

صمت بجاد لوهلة ثم قال:

- التقرير الثاني للطب الشرعي ظهر، هناك مفاجأة لم أتوقعها.

- لا أعلم إن كانت الخيوط تتعقد أم تحل.

- وأنا أيضًا لا أعلم، حدثني عندما تنتهي وسوف آتي إليك

- سأفعل. يجب أن أغلق الخط الآن إنها آتية.

أقبلت عليه مبتسمة تحمل في يدها الكاميرا، تنظر إليه تارة وللصور التي التقطتها تارة أخرى، وضعت الكاميرا على الطاولة ثم نظرت إليه قائلة:

- هل تأخرت عليك؟

- لا لم تفعلي... أو قد تأخرت وأنا لم أشعر فقد كنت أتحول بين الصور الجميلة.

ألقي نظرة خبيثة للكمبيوتر ثم إليها مبتسمًا، نظرت إليه مندهشة وغاضبة وقد شحبت لونها، ثم قالت له:

- أي صور؟

أجابها وهو يتجول بعينه في المكان:

- هنا... حولك مئات الصور الرائعة.. بالتأكيد اقتنصت صورًا مذهلة.

أجابته وقد بدا على ملامحها بعض الراحة:

- نعم لقد انتهيت تقريبًا.

- أتمنى أن تكوني حصلت على بعض الأسرار. أنتِ في

مكان ممتلئ بها.

- لم أشعر بذلك. أشعر أنني في مكان جميل وحسب.

- هناك على مسافة قريبة بئر يوسف هل شاهدته؟

- لا لم أفعل.

- إنه رائع، والأروع أن سره ما زال محفوظاً حتى الآن.

- أي سر؟!

- هناك مراجع تاريخية تؤكد أن هذه البئر هي البئر التي ألقى

فيها إخوة يوسف أخاهم، وأخرى تؤكد أنه يعود إلى "يوسف

بن صلاح الدين" الذي أمر بحفره في الصخور بصعوبة شديدة،

كان المحاربون والعسكريون يعتمدون على مياه القلعة في الزراعة

وشرب الدواب، وكانوا قليلاً ما يعتمدون عليها في مياه الشرب

لعدم عذوبة البئر، ولكن في حالة انحسار المياه العذبة أو نضوبها

كانوا يعتمدون على مياه البئر بتحليلها وتنقيتها للشرب.

حتى الآن ما زال هناك خلاف حول اسم البئر، لكن الأمر

المؤكد هو أن هذه البئر ظلت على مدى سنوات طويلة الشريان

الحى للقلعة خاصة في الأوقات التي فرض فيها الحصار.

هذه البئر تمثل أكبر وأعمق ساقية في العالم، لكنها تخفي

سرّها بداخلها. هذا لا ينطبق على كل الأسرار، هناك أسرار مهما

حاول أصحابها إخفاءها تكشف.

كانت تستمع راندا إليه بانتباه شديد لربما تتمكن من فهم ما

يقصده من وراء تلك الحكاية وعندما صمت فجأة ونظر إليها قالت له محاولة إظهار عدم اهتمامها بحديثه:

- وما دخلي أنا بقصة هذه البئر؟! هل هذا ما طلبت أن تراني من أجله؟!!

- بالطبع لا. بعض الأماكن تشبهنا... تجربنا أن نحكي عنها للآخرين.

قالت وهي تنظر إلى ساعة يدها.

- إذا أخبرني، لأنني تأخرت كثيرًا.

ابتسم بخبث ونظر إليها قائلاً:

- لن أطيل عليك أكثر من ذلك، أردت أن أراك لأنني أعلم

متانة علاقتك بحنين.. وبالتالي والدها، أريد فقط أن أراها ربما يمكنني مساعدتها.

- لكنها في غيبوبة هل يمكنك فعل ذلك وهي في تلك الحالة؟

- أعتقد، على كل حال إن لم أفدها فلن أضرها.

أجابته وهي تلملم أغراضها ودون أن تنظر إليه:

- حنين لم تخبرني يومًا أنها كانت تذهب لطبيب نفسي، ربما

كان يمكنني مساعدتها في إقناع والدها، أعدك أني سأحاول معه.

حملت حقائبها ثم مدت يدها إليه قائلة:

- أعتذر منك، لدي عمل مهم على القيام به.

مد شريف يده إليها ونظر بعمق في عينيها قائلاً:

- أعتذر لأنني أخذت الكثير من وقتك.. أتمنى أن أسمع

منك أخبارًا جيدة قريبًا.

ابتسمت إليه ورحلت من المكان بخطوات سريعة ودون أن تلتفت وراءها وكأنها تهرب منه.

قبل الحادثة بشهرين

كانت حنين تجلس مع هشام يتناولان الفطور معًا في شرفة بيتها الواسعة المطلة مشهد القاهرة الريحب بعد شروق الشمس بساعات قليلة، إنها المدينة المستديرة التي تشبه الكعكة وقد زينتها قلعة الجبل كحبة كرز في المنتصف، في ذات الوقت كانت راندا تجلس في بيتها وتمسك بهاتفها تنتظر خبرًا من حنين، تنظر بين الحين والآخر وتتأكد أن شبكة الاتصال تعمل، كان يبدو عليها الملل والتذمر إلى أن وصلتها رسالة من حنين تخبرها أنها خرجت مع هشام من البيت وأنها خبأت سلسلة مفاتيح هشام في درج المكتب، أكدت عليها أن تتبها لهاتفها ربما يطرأ أمر ما وأنها ستعمل على إبقاء هشام معها إلى أن تنتهي من مهمتها.

حملت راندا حقيبتها والحقائب التي أحضرتها حنين لتضعها في شقة هشام وذهبت إلى بيته، كانت ترصد بعينها كل ركن في البيت تتفقد كل شيء تفتح كل الأبواب المغلقة والدواليب الموصدة والأدراج المقفلة، كانت تبحث عن أي شيء لا تعلم ماهيته، الأفكار تشتعل في رأسها وتخفت، أفكار بلا هدف فما أهل أن تلقى حتفها، دخلت غرفة النوم، ثم نظرت هنا وهناك قبل أن تتقدم خطوة واحدة، ثم تقدمت خطوة تلو الأخرى

تجاه الخزانة وكأن شيئاً ما يسحبها برفق، فتحت الباب ونظرت نظرة شاملة، ثم وقعت عيناها على درج صغير، فتحت الدرج فوجدت صورة فوتوغرافية أخذتها وأمعنت النظر بها، غزت ملامحها تعبيرات الدهشة والحيرة كانت تحرك عينيها يمينا ويساراً قاطبةً حاجبيها، ثم نظرت إلى ما كتب على ظهر الصورة وزادت دهشتها أكثر، أخرجت والتقطت صوراً لتلك الصورة من عدة زوايا وجهًا وظهرًا، ثم عادت للنظر فيها مرة أخرى وكأنها شردت لثوان قليلة، مدت يدها في عمق الدرج فوجدت جواز سفر، نظرت بمجرد أن نظرت بداخله برقت عيناها ولم ترفعهما عنه لثوان، لم تنتبه إلا عندما دق جرس هاتفها، نظرت إلى اسم المتصل واضطربت قليلاً، كانت حنين، أخبرتها أن تلغي كل شيء اتفقا عليه وأن تخرج فوراً من بيت هشام وسوف تشرح لها لاحقاً، أعادت كل شيء كما كان وخرجت مسرعة.

البحيرة الجميلة «تبادل الأدوار»

لم يهتم أبي ولم تهتم أُمِّي تلقيني تعاليم ديني، رغم أنني على يقين من أن أُمِّي لم تكن لتتزوج أبي إلا إذا أسلم، أدرك الآن أن هذا لم يكن إلا خوفاً وعدم قدرة على مواجهة المجتمع، أرى ذلك نفاق وكذب على الله لأنها بينها وبين نفسها تعلم أن أبي لم يسلم إلا ليتزوجها، أعتقد أنها ورثت دينها من عائلتها كفكرة وليس إيماناً، فلو كان إيماناً لكانت اهتمت بإرساء قواعده في عقلي وغرس بذوره في قلبي.

عندما انتقلنا أنا وأبي للعيش مع جدتي جعلتني أفكارها أخشى مجرد التفكير في الخطأ لأنها كانت تظن أن الدماء سبيل للعقاب، لترتقي أرواحنا فوق الخطيئة، جدتي لم تمتلك قط شجاعة جرح نفسها، ولكنني كنت أرى في عينيها بعض الامتنان إن جرحت نفسها دون قصد وذرفت الدماء، وكأنها منحة الله، أخبرتني أن أُمِّي كانت ذات حظ سعيد لأنها ذرفت دماء كثيرة؛ سيكون عقابها عند الله أقل، ما تعجب له عقلي بشدة أنها كانت تقول هذا الكلام وكأنها تطمئنني.

كان والد حنين يقرأ تلك الكلمات التي سطرتها ابنته بيدها ومزجت بين حبر قلمها ودموعها وهو مشدوه يتعرف على

ابنته للمرة الأولى بلا حواجز ولا مسافات، أدرك أن المأساة لم تبدأ حين أخذها بيده إلى والدته بل بدأت منذ أن تزوج بأمها وأنجباها دون أن يسألا أنفسهم هل هم مستعدون لتحمل عبء وجود طفل بينهما وحتى دون أن يتفقا معاً على الطريقة المثلى لتربيته، ترك الأوراق من يده وشرذ في الأفكار التي لم تأت يوماً على باله حتى ولو في صورة هواجس، ظل يفكر حتى غلبه النعاس وراح في نوم عميق دون أن يبدل ملابسه.

ترك شريف راندا لحيرتها وارتياها من حديثه، ثم اتصل على الفور بجاد ليقابله ويخبره بما حدث، أخبره بجاد أنه سوف يمر عليه ويذهبا إلى ثمة مكان ليتحدثا فيه.

لم يبد على ملامح شريف أي تعبيرات، كان يفكر فقط؛ ما سر وجود مثل هذه الصورة مع راندا، هل أرادت أن تخبر حنين بشأنها، أم أخبرتها بالفعل، أم أنها كانت محاولة ابتزاز لهشام؟ كان كل هذا جنباً إلى جنب عن ماهية الصورة؛ من هذا الرجل الذي يقف بجانب هشام، وما هذا الشبه الغريب وكأنه انعكاس مرآة، الأفكار تتخبط وتتسارع في عقله، ولم يجد إجابة أو نتيجة منطقية سوى أن الأمور تزداد تعقيداً أكثر.

أما بجاد فكان يبدو على ملامحه التعب والفضول والغضب في نفس الوقت. ما لبث أن جلس شريف على مقعد السيارة

حتى باغته بجاد بسؤاله:

- ماذا وجدت؟

أخرج شريف هاتفه من جيبه ووجهه لناظري بجاد. نظر في الصورة وأمعن النظر ثم قال:

- أليس هذا هشام؟ من هذا الذي معه؟ وأين وجدت هذه الصورة؟

أخذ شريف نفساً عميقاً ثم قال له:

- سأخبرك بكل شيء، لكن أنا في حاجة ماسة لفنجان قهوة.. لنذهب.

انطلق بجاد بالسيارة وسلك طريق المقطم، وأمام إحدى المقاهي المطلة على الجبل توقف وترجل الاثنان عن السيارة. روى شريف لبجاد ما حدث مع راندا، كان بجاد يصغى إليه باهتمام شديد دون أن يعلق بكلمة واحدة، وعندما انتهى شريف من حديثه، اعتدل بجاد في جلسته ثم سأله متعجباً:

- لماذا لم تواجهها بالصورة وتسألها عنها؟

- كانت ستلفق إجابة وتخبرني بها، ما أعرفه عنها قليل لكن أظن أنها ذكية بالقدر الذي يكفي لتلفيق إجابة، أو ربما أعدتها من قبل.

- لكنك طبيب نفسي، مؤكد ستعرف أنها تكذب.

- لا يهم أن نعرف أن هناك حقيقة مغلوبة، ما يهم هو ما

هي هذه الحقيقة.

نظر بجاد إليه ونفث دخان سجارته وقد بدا على ملامحه أنه غير مقتنع بما قاله شريف، سكت لوهلة ثم قال له:
- أنا محقق، وأعلم جيداً ماذا يعني أن تباغت إنسان بالاتهام دون أن تمنحه رفاهية التفكير وفرصة تليفق إجابة كما تقول.
ابتسم شريف ثم قال له:

- نعم أنت محقق، لكن أنا طبيب نفسي وأعلم جيداً ما يفعله الشك، إذا وضعت إنساناً في موقف اتهام سيفعل كل ما في وسعه للدفاع عن نفسه، فقد وقع المحذور بالفعل، لكن إن وضعت في موقف شك ستجعله يشعر بعدم راحة سيكون جل همه هو أن يغطي على فعلته وعدم الراحة هذا سيجعله يتخبط ويتصرف في الغالب بلا حرص وهذا ما راهنت عليه.

نظر بجاد مرة أخرى في الصورة ثم شرد قليلاً وتحدث فجأة قائلاً:

- "لندن ٢٠١٠!"

- هل فهمت شيئاً؟

- هذا العام كانت لا زالت حنين في لندن، ربما...

قطب شريف حاجبيه ثم قال:

- أتقصد أنه تعرف على حنين في لندن؟!

صمت لوهلة وفكر قليلاً ثم أردف قائلاً:

- لكنه لم يخبرني بهذا قط!
- نظر بجاد في الصورة مرة أخرى ثم قال:
- اعتقد أن الإجابة ستبدأ من لندن.
- كيف ذلك؟
- لي صديق يعمل ملحقاً قانونياً في سفارتنا بلندن سأطلب منه أن يتحرى عن الأمر.
- تقصد أنه سيفعل ذلك بشكل غير قانوني؟
- طبعاً... أنا الآن رسمياً ليس لي علاقة بهذه القضية.
- نظر شريف إليه ثم ضغط على شفتيه، وقد أصابه الإحباط،
- ثم تذكر فجأة أن بجاد قد أخبره في الهاتف أن التقرير الثاني للجنة الطب الشرعي قد صدر فسأله عنه، أجابه بجاد قائلاً:
- أخبارك أتلفت ما لدي من أخبار.
- ابتسم شريف ثم قال:
- من يعلم ربما ما لديك هو الأهم.
- إذا سأسلك سؤال قبل أن أخبرك، هل حين تستخدم يدها اليسرى؟
- جاء رنين هاتفه قبل أن يجب شريف عن سؤاله، أجاب بجاد على المتصل الذي أخبره بالخبر السيئ الذي أصابه بضيق شديد رغم أنه توقع أن يسمعه في وقت سابق.

ما أصاب راندا من حيرة وقلق وظنون جعلها تفكر في كل شيء ممكن وغير ممكن، هذا التفكير أضاع تركيزها ولم تستطع أن تنهي عملها في القلعة بسرعة، وترحل من هذا المكان الذي صار مخيفاً فجأة، وكأن الجدران بات لها عيون تلاحقها وأفواه تنذرها بأن تفشي سرها.

ذهبت مسرعة إلى بيتها وخلعت ملابسها ووقفت في حوض الاستحمام تتلقى قطرات الماء على وجهها، تغمض عينيها تارة وتفتحها تارة أخرى وهي تفكر في كل كلمة قالها شريف، تتساءل ما هو السر الذي كشفه شريف؟ ومن عرفه؟ وكيف عرفه؟

فجأة جحظت عيناها وبرقت في رأسها إجابة، جففت جسدها والتفت بالمنشفة وخرجت مسرعة من الحمام وأمسكت بهاتفها واتصلت بمحام هشام، لكنه لم يجب، كانت أنفاسها تتسابق في الدخول والخروج من رئتيها، تتحرك يميناً ويساراً بلا هدف، عدم رد المحامي على اتصالها جعلت الشكوك تتفاقم وتكبر في داخلها.

مرت دقائق وكأنها ساعات حتى جاءها اتصال من المحامي، أجابت على اتصاله على الفور:

- ماذا فعلت أنت؟! ألم أخبرك ألا تخبر أحداً بما أخبرتك

به؟

- لم أفهم! عن أي شيء تتحدثين؟!!

أجابته بنبرة أكثر حدة وغضب:

- لا تراوغ.. أتحدث عما أخبرتك به بشأن قاضي التحقيق

- لم أجد أمامي حلاً لإخراج هشام من هنا إلى ذلك، وقد

حدث بالفعل، والنائب الجديد أخلى سبيل هشام وأنا أنهي

إجراءات خروجه في الوقت الحالي، ومتأكد أنه سيحصل على

البراءة من الجلسة الأولى.

سألته وقد ارتعش صوتها من شدة القلق:

- سيحاكم؟!!

- طبعاً في النهاية هو المتهم الوحيد، والد المجني عليها اتهمه

ارتاحت بعض الشيء لهذا الخبر وكأنه شربة ماء بعد

كابوس مزعج، رغم حزنها من رؤيته وراء القضبان، شردت

لوهلة وهي تحدث نفسها قائلة "لا أعلم إن كانت الأمور تتعقد

أم أن الفرج قريب".

كان يسمع رنين الهاتف وهو نائم ولم يدرك أن المتصل ينتمي

للواقع وليس الحلم، استغرق الأمر ثواني ليستفيق ويستيقظ من

تلك الراحة المتعبة ويحيب على الهاتف الذي اكتشف أنه ليس

الرنين الأول لكنه لم يسمع المرات السابقة.

- صباح الخير يا سيد إبراهيم، أنا منير سالم محامي سيادتكم

- أعلم يا أستاذ، ما الأمر؟

- أردت إخبارك أن النيابة أفرجت عن بجاد بضمان محل إقامته ومنعه من السفر، ويبدو أن القضية ستأخذ منحى آخر، أظن أن المحكمة تمنحه البراءة.

- ماذا تقول؟

- أقصد.... انتحار.. ليس هناك دليل مادي يدين هشام أغلق الخط وشرّد قليلاً فيما قاله المحامي، لم يكن ليتوقع قبل أن يقرأ ما كتبه حنين أن يتقبل الأمر ويسلم بكون حنين انتحرت، نهض من مكانه ودخل الحمام ليتحمم ويبدل ملابسه التي لم يخلعها من الليلة الماضية، ثم خرج وصنع فنجان من القهوة وعاد إلى مقعده مرة أخرى وأمسك بورق حنين الذي لم ينته منه بعد.

غابة من الظلال، غصون أشجارها طويلة تتحرك بالتناوب كأذرع الأخطبوط، أنهار من الدماء تتخلل الأشجار، أرض رطبة يملؤها الطين، في كل مرة أغرس قدمي أشعر أنني لن أقوى على استعادتها وسيبتلعني الوحل، فجأة عاصفة شديدة تهب بقوة، صوت صفيرها يخترق الأذان، تتشابك وتتعدد الغصون. تفيض أنهار الدماء ويتحول كل شيء للون القرمزي ويطمر المكان كله ويمتزج كل ما فيه معاً ليصبح ما تراه عيني فقط صورة حمراء بلا ملامح، فجأة أرى نفسي حافية على قمة جبل أسود، فوق القمة

تمامًا، كأنها مديبة حادة كطرف إبرة، لدرجة أنني كنت أشعر بوخز في قدمائي، ثم أرى الدماء تسيل منهما.
كابوس كنت أراه بين الحين والآخر، تختلف تفاصيله لكن تبقى نهايته واحدة.

الحياة في إنجلترا كانت مملة، لم أجد متعة في أي شيء، كنت أنزعج من الأشياء التي تسعد الآخرين، كأن يراني أحدهم ويقول "تشبهين مونيكا بوللتشي"، أتعجب كثيرًا، لماذا يفترض أن يكون ذاك إطرأء؟! لماذا يسعدني هذا؟! هل لأنها مشهورة أم لأنها جميلة؟! هل الجمال دائمًا يحتاج لشبيه لتقييمه؟! إذا كانت "مونيكا بوللتشي" لن تسعد بأنها تشبهني، لماذا أسعد أنا به؟ رغم انزعاجي من ذلك كنت أرى الغيظ في عيون أترابي، ولا أعلم لماذا، ربما كن يرغب في أن يشبهن "مونيكا بوللتشي"، كان حظي سيئًا لم أجد من يفهم ذلك، مشاعر الإعجاب التي كانت تبدأ عفوية وهادئة، سرعان ما تتبدد بغضب جامح ينسف قانون نيوتن الثالث، فلم يساو قط الفعل رد فعلي في المقدار.

أنهيت دراستي في كلية الفنون، وشعرت أن الحياة في إنجلترا أيضًا قد انتهت، حلم العودة إلى القاهرة راودني ناعمًا في البداية، وبالتدريج أصبح هاجسًا، يسيطر على عقلي ليل نهار، إلى أن جاءت ليلة سوداء كعيون الظبي، لم يستطع نور البدر أن يزيع عتمتها، وقعت حادثة جعلت عودتي للقاهرة قرارًا حتمي الحدوث.

كنت أقود السيارة بسرعة جنونية، كانت العتمة شديدة، رغم أن القمر كان مكتملاً ونوره وفير، كان الطريق وعراً، متعرجاً، فجأة ظهر أمامي رجل لم أستطع أن أفاديه، دهسته، ورغم أني كنت أحاول ألا أعتمد على والدي في أي مأزق، حتى في تلك الليالي التي كنت أتصرف فيها بجنون وأدخلتني أقسام الشرطة في بعض الأحيان؛ لكن الأمر اختلف في تلك المرة، حياة إنسان كانت على المحك، حدثت والدي وطلبت منه أن يتصرف، طلب مني أن أطلب الإسعاف للرجل وأرحل على الفور وسيفعل هو ما يقدر عليه.

فعلت ما طلبه مني، انتظرته طويلاً حتى يعود. كانت أطول وأصعب ليلة مرت عليّ منذ أن دخلت هذا البيت، في تلك الليلة بالذات بدأت أفكر في كلام جدتي، سيرة الدماء التي تُريح ذارفها بعد كل خطيئة، أمسكت بالسكين. بسطت ذراعي، وبيد مرتعشة مددت السكين وأحدثت جرحاً، كان مؤلماً. كتمت صرختي، لكي لا أخرج ألمي فيها، أردته أن يستمر، والأعجب أنني شعرت براحة عندما ذرفت الدماء، وسألت نفسي ترى هل كان ذاك شعور أُمي؟

عاد والدي إلى البيت بعد أن خارت قواي وتحطمت أعصابي، أخبرني أنه استطاع أن يبعدني عن هذا الأمر، كان يعتقد أن هذا ما يهمني في ذلك الوقت، لكن ما كان يشغلني هو حالة هذا الرجل،

تمنيت أن يطيب حتى وإن كان الثمن هو أن أنال عقابي، أخبرني أن إصابته ليست خطيرة وسيتعافى. كانت الحيلة الكلاسيكية التي يلجأ إليها كل من يملك مالا ونفوذاً، هي أن يتحمل شخصاً آخر فعلتي أمام القضاء، فهي بمثابة طوق النجاة لسمعته.

لم أستطع أن أتحدث مع والدي في هذا الأمر، لم أمتلك حتى جسارة سؤاله عن صحة ضحيتي، لم يرتح قلبي قط، كنت أعيش ضغطاً نفسياً لم أقو على تحمله. طلبت من صديقة لي أن تذهب إلى المشفى وتسال عن حالته؛ وليتني لم أفعل.

عرفت أن الجريمة التي ارتكبتها في حق شاب لا ذنب له سوى أنه تواجد في زمان ومكان تواجدت فيه فتاة مصابة بنوبات جنونية لا يُحمد عقباها؛ قضت على مستقبله وحياته، شاباً كانت ما زالت الحياة أمامه بألوانها المتعددة، وفي لحظة واحدة أمست الحياة أمامه لوناً واحداً، أسود، أصبته بالعمى.

مناوشات مستمرة بيني وبين جدتي وبين والدي، أصابها فزع من فكرة العيش بمفردي بلا رقيب أو حسيب، بينما أبي تخلى عن سلبته التي اعتدت أن أراها أمام جدتي، وافق لكي أبعد عن إنجلترا حتى تنتهي توابع الحادثة التي أوشكت أن تقضي على سمعته.

اشترى لي والدي شقة المقطم، لا أعلم لماذا اختار هذا المكان تحديداً، لم أسأله، أعجبني المكان وهذا التل الكبير المطل على القاهرة، والطقس الرائع. لم يعطني مالا وفيراً، اعتقد أن تلك

كانت رغبة جدتي، لتضمن عودتي إليهم. لكن من اللحظة الأولى التي وطأت قدمي أرض القاهرة؛ قررت أني لن أعود أبدًا.

القاهرة تشبهني، ماجنة ومؤمنة، ليلها باهر ونهارها سافر، لن يفهمها أبدًا من يتجاهل التفاصيل، وسرها في تناقضاتها، حكيائها لا تنتهي، تنافس الوقت. شخصيتها واضحة لم تتأثر بثقافات أخرى منذ نشأتها، لكنها تؤثر، تبتلع كل شيء وتصيغه بما يناسبها، من الصعب الشعور بغربة فيها، هناك حميمة غريبة تجعل من يراها لأول مرة يشعر أنه جزء منها، لا توجد فيها أمور قطعية، ولا مجال للحتميات والمؤكدات، ليس هناك حقيقة ثابتة ومؤكدة سوى أننا نكبر، بينما تبقى هي شابة دائمًا.

كان أول شيء فكرت فيه هو تأسيس عمل خاص بي، لا يجعلني تحت رحمة رغبات أبي، أو بالأحرى جدتي، لم يكن لدي خيارات كثيرة، فأنا لا أملك سوى دراستي وموهبتي والمال الذي أعطاني إياه والدي، ولأن اختلاطي بالناس كان أمرًا في غاية الصعوبة، فكرت في إنشاء موقع إلكتروني أعرض من خلاله قطع الحلي التي أصنعها وأبيعها.

نجحت في وقت قصير أن أكون سمعة طيبة وقطعًا مميزة جديرة بالاهتمام، وقطعًا لا يمكن أن أنكر دور راندا، من لحظة تدشين الموقع إلى تصوير القطع التي أصنعها وتسويقها، هذا كان نجاحًا آخر، استطعت امتلاك صديقة، مخلص، ووفية، وذكية،

والأهم من كل ذلك، تحبني.

أنهي والد حنين أوراق حنين، وشعر أن تلك السطور التي كانت بمثابة جواز سفر لعقل ابنته، أدرك أمورًا عنها لم يكن ليدركها لولا تلك الأوراق، أدرك مأساة ابنته والظلام الذي ألقاها فيه بيده بمنتهى الجهل، حتى عندما امتدت يد لتساعدها وفتحت لها طريقًا للنور جذبها منه بمنتهى الأنانية والظلم. شعر بحاجة ملحة للحديث مع شريف، ربما يستطيع أن يساعده في إنقاذ ابنته. ربما يخرجها من سباتها، يفتح في عقلها الغائب عن الواقع سبيلًا للحياة مرة أخرى، أمسك بهاتفه واتصل بشريف بعد أن قرر أن يربط الأوصال التي قطعها من قبل واختار هذا المصير التعس.

بعد أن أنهى بجاد المكالمة المباحثة، شرد قليلاً بوجه عبوس، محبط، ثم نظر إلى شريف الذي لم يشح نظراته عنه منذ أن ازاح الهاتف عن أذنه. سأله مترددًا:

- هل سمعت خبر سيء لهذه الدرجة؟

- نعم، لكنني كنت متوقعًا أن أسمعه

أحنى شريف رأسه لأسفل وصمت لوهلة ثم نظر إلى بجاد مرة أخرى وقال:

- فهمت! أنهى قاضي التحقيق الجديد احتجاج هشام.

أخذ بجاد نفسًا عميقًا وأخرجه من فمه قائلاً:
- نعم.

اقرب منه شريف وربت على كتفه ثم قال له:
- ربما يكون ذلك أفضل، يمكننا الآن فهم بعض الأمور الغامضة.

نظر إليه بجاد مندهشًا ثم سأله:
- ماذا تقصد؟

- أقصد. يمكننا أن نفهم هل هناك علاقة تربط بينه وبين راندا أم لا.

لم يجب بجاد وصمت قليلاً وبدأ يفكر، لكن نظراته لشريف كانت توشي بأنه اقتنع بما قاله، خروج هشام في هذا التوقيت وراندا في حالة التخبط والارتباك تلك، يمكن الاستفادة منه وفهم بعض الأمور، ارتاح قليلاً لظهور خيط جديد يمكن ملاحقته.
أنهى شريف هذا الصمت وسأله:

- الآن أخبرني، لماذا سألتني إن كانت حنين تستخدم يدها اليسرى أم لا؟

- ذات مرة انزلت حنين في الحمام وحدث لها التواء في معصم يدها اليمنى، توقفت عن العمل والقيادة وكل الأنشطة التي تحتاج لقوة، لأنها لم تكن تجيد استخدام يدها اليسرى إطلاقاً، حتى أنها لم تكن تقوى على حمل فنجان شاي بها، أو

تقليم أظافرها بها.

- لم ألحظ ذلك، وهي لم تذكر لي أي شيء يتعلق بهذا الأمر، لكن ما علاقة هذا بتقرير الطب الشرعي؟

- التقرير يقول إن حنين تستخدم يدها اليسرى بمهارة، لأن طريقة القطع وشكل الجرح يؤكد أنه من استخدام اليد اليسرى في إحداثه!

نظر إليه شريف صامتاً وقبل أن يتحدث أردف بجاد قائلاً:

- ألم تلحظ من قبل جروح حنين القديمة؟

- نعم.

- في أي ذراع؟

- الجروح التي رأيتها كانت في ذراعها الأيمن...

- بالضبط، كلها في ذراعها الأيمن، كلها كانت جروحاً

سطحية وطريقة القطع من الخارج إلى الداخل

أمسك بجاد بقطعة خشب صغيرة ملقاة على الأرض بيده

اليمنى وافتعل أنها شفرة، وأشار على اليسرى وكأنه سيحدث

قطعاً فيها وهو يقول:

- أمر طبيعي وتلقائي أن تقطع يدك هكذا من الخارج إلى

الداخل، وليس العكس.

- صحيح.

- كل هذا لا ينطبق على الجرحين الآخرين.

تحمس شريف لما قاله بجاد وهم واقفاً ثم قال:

- وماذا تنتظر؟! قدم هذا التقرير على الفور لرئيس النيابة.
- اجلس ولا تتحمس بهذا الشكل، هذا التقرير لن يفيد الآن.

- لماذا؟

- لأن ما فيه لا يرتقي لأن يكون قرينة، لفتح التحقيق من جديد وإثبات أن الواقعة ليست انتحاراً، لا بد من وجود دليل قوي أو تقديم جانٍ للعدالة، كما أني مستبعد عن القضية الآن لا أستطيع فعل أي شيء.

كان الإحباط في هذه اللحظة هو سيد الموقف، بعد أن باتت الحقيقة واضحة ازدادت القيود، الاقتراب من الهدف بهذا القدر بلا سهم يزرع في منتصفه أمراً أشد قسوة من عدم رؤيته.

صمت الاثنان ولم يجد أيّاً منهما كلاماً يقوله للآخر، القاهرة أمام عينيها كحفرة كبيرة، هاوية سحيقة، قد يلقي الإنسان حتفه فيها قبل أن يرتطم جسده بالأرض، فجأة جاء رنين هاتف شريف ليقطع هذا الصمت، كان والد حنين، يخبره بأنه يريد أن يراه، وافق شريف على طلبه واتفق معه أن يراه في عيادته بعد ساعتين، أنهى شريف المكالمة التي جذبت انتباه بجاد، وعندما لاحظ شريف ذلك ابتسم بخبث ثم قال:

- أرى في عينيك كلاماً أو سؤالاً..

- لم تنجح في قراءة عيني يا طيب؛ أنه طلب.

- ما هو؟

- أريد أن أرى حنين.

صمت شريف لوهلة ثم نظر إلى بجاد، وقطب حاجبيه، قد

خطرت في ذهنه فكرة فأسرع قائلاً:

- سترها... انتظر مني مكاملة اليوم.

لم تستطع راندا أن تعلم بخروج هشام ولا تسرع في الذهاب إليه ورؤيته، وإخباره عن لقاءها بشريف، وقفت تنظر إليه بعد أن فتح لها باباً دون أن تتحدث كانت عيناها تفضح ما بهما من شوق ولهفة وغرام، أما هو فلم يكن سعيداً على الإطلاق برؤيتها، كان يبدو عليه الضيق والغضب، ترك الباب مفتوحاً وأدار ظهره إليها ومشى بخطوات وئيدة ثم وقف، التف إليها فوجدها ما زالت واقفة أمام الباب ولم تدخل فسألها متعجباً:

- هل تحتاجين دعوة للدخول؟!

- أعتقد ذلك! هل تريدني أن أدخل بيتك دون أن تسمح لي؟!

نظر إليها ثم ابتسم ابتسامة ساخرة ثم قال لها:

- أمرك عجيب! هذه ليست المرة الأولى التي تدخلين فيها

بيتي دون أذني، على الأقل هذه المرة أنا من فتحت لك الباب، ولم تدخله خلصة.

تقدمت إليه بخطوات متعجّلة تحبّط الأرض بقوة بكعب
حذاءها المدبب، ثم قالت بحدة:

- هل سنتجادل مرة أخرى في هذا الأمر؟! أخبرتك من قبل
عن سبب دخولي بيتك دون إذنك.

- نعم أخبرتني، لكن لم تكن مهمتك العبث بأغراضي
واقترحام خصوصيتي.

نظرت إليه وبدأت الدموع تترقق في عينيها ثم قالت:
- كنت أريد أن أعرفك أكثر، أراك عن قرب، أقسم أنني لم
أكن أبحث عن شيء.

- وعندما وجدته، تحايّلت عليّ بمكر لتعرفي قصتي، ولم
تردي في استغلالها ومساومتي بكل وقاحة!
مسحت دموعها التي بدأت تتساقط قطرة تلو الأخرى ثم
قالت بصوت مرتعش:

- أردت إقناعك بكل الأشكال أن كل هذا الحب الذي
تمنحها إياه ليس له مقابل، لم تكن تستحقه، لكنك لم تأبه لكلامي
قط، صمتت قليلاً ثم أردفت قائلة:

- كنت مثل الأم التي تهدد ابنها إن لم يفعل الصواب ستخبر
والده، كان عليّ إجبارك، وكنت أقول لنفسي سيأتي يوم وتفهم
ما كنت أرمي إليه.

نظر إليها وابتسم بسخرية قائلاً:

- حقًا!

اقتربت منه ثم قالت بصوت خافت:

- أقسم لك.

تراجع خطوتان للخلف ليباعد عنها فاقتربت مرة أخرى ثم قالت:

- لم أتصور قط أنها سوف تقتل نفسها إن أخبرتها أنك لن

تعود إليها.

التفت إليها، ثم نظر إليها ببغض شديد ولم يقل شيئًا، ثم

أشاح بوجهه بعيدًا عنها مرة أخرى.

اتجهت راندا إلى أقرب مقعد وهي تسحب ذنب خيبة الأمل

والحزن والغيرة واليأس وراءها، كانت خطواتها بطيئة مثقلة

وكأنها تجر أغلالًا، كل ما فعلته ذهب سدى، شعرت أنها لم

تفشل في امتلاك قلبه فحسب، بل فشلت في نزع حب حنين منه،

سقطت بكل قوتها على المقعد ثم أجهشت في البكاء قائلة:

- كل هذا البغض لي أنا وكل هذا العشق لها هي فقط؟! أنا

أحق منها بك، لطالما كنت أنت وحدك غايتي، بينما لم تكن أنت

لها سوى وسيلة لنسيان غيرك، أنت غبي!

نظر إليها في برود ثم قال:

- لن تنجحي هذه المرة في شحذي ضدها.

همت واقفة واقتربت نحوه وهي تمسح دموعها بقوة، وقالت

بغضب:

- ليكن! لكن يجب أن تعرف أن حبها الجارف الذي أخبرتك عنه من قبل لم ينته، ليس فقط في قلبها ولكن في قلبه هو أيضًا، لتعلم إذاً أن من ألقى بك في السجن كل تلك الأيام؛ هو حبيبها.

برق بعينه وهو ينظر في عينيها ويأمل أن يرى الكذب فيهما، فأكملت بغضب قائلة:

- أنت ذكي بقدر كافٍ، اعتقدت أنك شعرت بغضبه الشخصي تجاهك، وأظن أن المحامي قد أخبرك أن هناك تعسفًا من جانبه ضدك.

وقف صامتًا يستمع إلى كلامها ويفكر فيه ويتذكر سلوك بجاد العدواني معه والإجراءات الظالمة التي اتخذها، وقراراته الصارمة. قال بصوت يشبه الهمس:

- إذا كان هو حبيبها.

- ماذا قلت؟ لم أسمع!

شرد تمامًا لدرجة أنه لم يشعر بانسحاب راندا من أمامه ورحيلها إلا عندما أغلقت الباب بقوة، رمى بنفسه على المقعد وتملكه الغيظ والغضب ورهبة عارمة من الغد.

خرجت راندا غاضبة من سلوك هشام معها، كانت على وشك الانهيار كمن سقط في حفرة، من نار تبتلعها السنة لهبها تقذف بها من شعور إلى آخر. مشاعر كثيرة ومتناقضة تلاحقها

وفي حر وعصف تلك المشاعر، تذكرت أنها لم تخبره بما دار بينها وبين شريف، فكرت لوهلة، لكن الغضب الذي تملكها جعلها تأخذ قرارها بالألا تخبره، وهي تقول لنفسها "ليعرف من يعرف، أخف شرك إن استطاعت بعد اليوم".

عندما ذهب شريف إلى العيادة في الوقت المحدد مع والد حنين؛ وجده ينتظره في العيادة منذ ساعة، هكذا أخبره مساعده «منعم». كان يبدو كرجل آخر وكان عمره قد تضاعف، لدرجة أن شريف وقف أمامه يتأمل وجهه وعينيه الحزيتين المرهقتين. مدّ له يده ليسلم عليه وهو يقول:

- يبدو عليك الإرهاق الشديد وكأنك لم تنم منذ أيام.
- صحيح.

نظر إليه متفحصًا وشعر أنه ليس بخير، نهض من مقعده وأحضر جهاز الضغط، تابعه والد حنين بنظراته وعندما عاد ومعه جهاز الضغط قال له:

- لا... ليس لهذه الدرجة.

- أريد أن أطمئن فحسب.

جلس شريف أمامه ووضع سماعته في أذنه وبدأ يتابع الزئبق وهو يصعد ويسقط، ثوم نزع عنه الجهاز قائلاً:

- ضغط دمك منخفض كثيرًا، يبدو أن الأيام السابقة لم

تسرق النوم من عينيك فقط، سرقت شهيتك أيضًا.

- لا تبالغ يا دكتور، يحدث لي ذلك بين الحين والآخر.

- ما رأيك أن أدعوك على العشاء اليوم، أنا أيضًا جائع، لن

نذهب بعيدًا أعرف مطعم قريب من هنا سيجلب لك شهيتك التائهة.

- لا داعي.. عندما أعود للفندق سوف...

قاطعه شريف قائلاً:

- لا ترفض رجاءً، هناك أمر ما أريد أن أتحدث فيه معك.

لم يستطع والد حنين الرفض بعد إصرار شريف على الدعوة،

كما أنه حقًا كان يشعر بالوهن، وحدثته نفسه أنها ستكون فرصة

جيدة أن يشاركه أحدهم في تناول الطعام.

كان مطعمًا صغيرًا ليس فخماً، أحد المطاعم العائمة في النيل

في جزيرة الزمالك، ريثما كان شريف يطلب من النادل أن يجهز

لهم طاولة قريبة من النيل، كان والد حنين يتأمل المطعم وينظر

حوله، يتفحص الجالسين ويتأكد من نظافة المكان، عندما لاحظ

شريف ارتبائه اقترب منه قائلاً:

- أعلم أنك لم تعتد ارتياد مثل هذه الأماكن البسيطة، لكن

اعتقد أن الجلوس على مقربة من النيل متعة، سواء أكان المكان

من ذوي السبع نجوم، أو بلا نجوم إطلاقاً.

ابتسم الاثنان وتقدما نحو الطاولة وجلسا، صمتا لوهلة ثم

قطع والد حنين الصمت قائلاً:

- في البداية أريد الاعتذار، انطباعي عنك لم يكن سليماً، عاملتك بتعالٍ وقسوة، كنت أظنك رجلاً مخادعاً تلهث وراء الشهرة أو المال، لكن بعد قراءة ما كتبتة حنين عرفت أنني مخطئ، أعتقد أنك لن تتفاجأ إن قلت لك أنني لم أعرف ابنتي قط، والآن بعد أن أدركت معاناتها قد أكون أخطأت في حق من اتهمت بقتل ابنتي أيضاً.

- هكذا الحياة؛ لا تنفك في أن تفاجئنا كل يوم بأمور كثيرة، ظروف تتغير ومشاعر تتحول، وأفكار ستتحال إلى النقيض، وأدوار تتبدل.

صمت والد حنين لوهلة يفكر فيما قاله شريف ثم قال:

- لم أفهم!

- هلا نظرت إلى الضفة الأخرى من النيل.

نظر إليها ثم قال له:

- ماذا تقصد؟

- إنها بولاق.

- وما علاقتها بالأمر

- سأخبرك... بولاق بدأت تأخذ شهرتها مع الحملة الفرنسية

على مصر عام ١٧٩٨، وكانوا يستغلون موقعها المتميز للوصول إلى مناطق الوجه البحري، اختلف الناس في معنى بولاق.. البعض قال إن أصل الكلمة هو "beau" أي الجميلة بالفرنسية،

و"lac" أي بحيرة، أي إن معنى الكلمة "البحيرة الجميلة" ثم تحرفت من بولاك إلى بولاق.. ورغم أنه لا يوجد ما يؤكد هذا الكلام لأن بولاق كانت موجودة قبل الحملة الفرنسية، يمكنك أن تقول إنها كانت هكذا بالفعل وتستحق هذه التسمية، فهي لم تكن مجرد مكان جميل وحسب بل كانت حياً صناعياً راقياً أيضاً، المسابك والمصانع الضخمة، الورش الكبرى، المطابع.

- حقاً ما تقول؟! -

- المفاجأة أن حي الزمالك -وهي كلمة تركية تعني الأكواخ الخشبية - الراقي اليوم كان عبارة عن جزيرة طينية لم تكن إلا نقطة انطلاق للصيادين الذين كانوا يقومون بتخزين أدواتهم في تلك الأكواخ، كما كانت مكاناً لراحتهم خلال فترات الصيد، أي أن في وقت سابق كان هؤلاء البسطاء الذين يعملون في الصيد كانت أعينهم ترحل كل يوم وتطلع إلى الحي الراقي الذي يطلون عليه، انظر ماذا حدث الآن وكيف تبدلت الأحوال!

ضحك والد حنين ضحكة صاخبة ثم نظر إلى شريف وكأنه يريد أن يقول له أنت الرابع. لم يفهم شريف نظراته فسأله:

- لماذا تضحك هكذا؟ -

- لأنك دائماً تسحبني بحكاياتك وتشعري أننا ذهبنا إلى مناطق أخرى في الحديث، ثم فجأة أجد نفسي في نفس المكان. ابتسم شريف ثم قال:

- لا تتعجب، لطالما رأيت في كل شيء حولي انعكاسات

لكل شيء يحدث لنا في الحياة.

- ليكن... أنت أخبرني إذا، هل تفضل أن تكون ما تطل عليه عيونك على الجانب الآخر هو الجميل، أم أنك تعيش في قلب الجحيم؟

نظر إليه شريف ثم بسط يديه على الطاولة وقال:
- أعتقد نحن نستحق الاثنين معًا، أي يجب أن ما تراه أعيننا هو ما نعيش فيه.

صمت والد حنين برهة وظل يراقب شريف بنظراته وهو يفكر في كلامه، بينما كان شريف يتأمل النهر المتدفق وأماوجه الهادئة، ثم التفت إلى والد حنين وصمت لوهلة ثم سأله:
- فيما شردت؟

- في القاهرة لم أنجرف يومًا في أعماقها، كنت أظن أن ما قدمته من مشروعات وشركات لخدمتها تكفي، رأيت الجمال لكني لم أعش فيه، أعيش في الفنادق الفارهة، أطل دومًا على الجانب الأجل وأعيش على أطراف الجانب المهمل، لم أنغمس فيه، حققت الاثنان، لكن كان هذا الأمر ظلمًا لها دون أن أشعر.

- أتقصد القاهرة؟

- لا... أقصد حنين.

- It is never too late يا سيد إبراهيم.

- لم أفهم!

- سأشرح لك... لكن في البداية يجب أن أحدثك عن

شخص مهم جداً لم تقرأ عنه في أوراق حنين، الشخص الوحيد الذي تحدثت عنه دون قلم، تحدثت بمشاعر متدفقة وهذا ما جعلني أصدقته وأثق فيه... وهو السبب في شكّي الآن في أن حنين لم تنتحر، عكس ما تظن أنت الآن.

نظر والد حنين إلى الجانب الآخر من النيل ثم سأل شريف والفضول يقفز من عينيه:

- من هو؟!

خرجت راندا من بيت هشام حزينة، بائسة، ضائعة، لا تقوى حتى على البكاء لكنها لم تكن تقوى أيضاً على إسكات نحيب قلبها، تشعر بغصة تطبق على أنفاسها، كتلك التي شعرت بها عندما أخبرتها حنين أن هشام اعترف لها بحبه.

ذكرتها أيضاً تلك الغصة بما شعرت به عندما تخلت عن أمها وتركتها حزينة، غاضبة كل تلك السنوات بلا أحد يسأل عنها سوى جدران المكان الذي وضعتها فيه، لكن هل كانت تلك فقط المساوئ التي فعلتها في حياتها؟! كل أمر سيئ قامت به وقف أمامها يتهمها بالسوء، فبالرغم من الحب والمشاعر النقية الطيبة التي أهدتها حنين إليها لم تنفك يوماً من أن تغار منها، لم تدفعها عن التخلي عن علاقتها ببجاد لأنها تخشى عليها من الجرح والفشل، بل لكي تنهي تلك العلاقة التي جعلت حنين سعيدة ومقبلة على الحياة بقلب جريء. كانت الأفكار تتأرجح

في رأسها تتلوى يمينًا ويسارًا، كحبال معلقة أمام عينيها في الهواء أجبرتها على الالتواء معها، الشعور بالذنب شعور لا يأتي بمجرد اقتراف الجرم، يأتي دائمًا بعد أن يُحدث نتائج غير محمودة فيصبح عميقًا، قاسيًا وقادرًا على تعزيز وجوده بسطوته على صحبته، راندا لم تشعر بالذنب لحظة عندما حاولت مرارًا الاستحواذ على مشاعر هشام، فكانت على يقين تام أن حنين لم تكن تحبه، وكانت ترى أن تخليه عن حبها هو الطريق الأصوب، كان داخلها يتمزق كلما رأت في عينيه كل هذا الحب لحنين وهي تعلم أنها لا تبادله هذا الحب بمقدار ذرة من الرمال، لكن اليوم كل شيء يترنح أمام عينيها الحب والوفاء والخيانة.

أدارت محرك السيارة وقبل أن تتحرك رأت هشام يخرج من البيت ويركب سيارته، انتابها الفضول فلحقته دون أن ينتبه.

عندما أبلغ شريف بجاد أن والد حنين وافق على زيارته لها وأخبره أن يذهب وسيلحقون به؛ ترك كل شيء وركب سيارته وانطلق في الطريق مسرعًا. كان صوت خفقات قلبه رمس صوت محرك السيارة. الطريق صار أميالًا، والدقائق باتت ساعات. الخوف والفرح يشكلان دوائر تدور في جسده ككرة تتناوب على ركلها أقدام الأطفال. وصل المشفى وقد تملكته جسده قشعريرة وكأنه عار في صحراء لاتينية، يلتصق الارتباك في كل خطوة تقربه منها. تتسارع دقائق قلبه بعنف. لم تعط هذه

المشاعر مجالاً للشوق فقد أصبح شعورًا من الماضي بمجرد أن أخبره شريف أنه سيراها.

كان القمر في السماء يطل على استحياء. مساحة ضيقة بين ثنايا الستائر القى منها بعض نوره. صمت مؤلم يملأ الغرفة، والأكثر إيلا مًا جسد حنين الذي لا حراك فيه، والأسلاك الكهربائية التي تصلها بالأجهزة ذات الصغير المنتظم والألم، جل الأم ألا شيء يربطها بالحياة غيرها، كان قلبه يقرع بشدة على باب صدره وكأنه سيقفز من بين ضلوعه ويلقي بنفسه بين ذراعيها كالطفل الصغير. تقدم بخطوات وثيدة إليها، التقط يدها واحتضنها بكفيه ثم جلس بجوارها. صمت طويل لا قياس له، فحسابات الزمن باتت في حاجة ماسة لعلماء الفلك، سقطت دمة عرضًا أنهت هذا الصمت وكأنها الغيث في الصحراء.

اقترب منها ثم همس في أذنها «ماذا أقول يا حبيبتى؟! كيف ألمم شتات نفسي؟! لم يقدر لي أن أغفو فوق رجلك وأنظر في عينيك، أن تربتي بيديك على رأسي، لم اتوقع قط أن يقع في قدرنا الفراق والدماء والانتقام ولا نعلم ما السبب، الشقاق بيني وبينك ما زال يرهقني كما أرهقني أول مرة، آآآآه يا حنين لو تعلمين، كم تصبح الأشياء عندما نفعلها بمفردنا للمرة الأولى بعد فراق عزيز، الأمر لا ينتهي بمرور الوقت، ربما ينتهي بانتهاء تلك الأشياء لكنها لا تنتهي ففي كل فرح وكل حزن يكون هناك

دائمًا نقص، لن أطيل عليك أكثر من ذلك، وأعدك مهما كلفني الأمر سأعرف ماذا حدث لك، لن يمر يوم دون أن أفكر في ذلك، إن استطعت سأمنع نور الشمس عن الأرض إلى أن يشرق وجهك أنت على الأطراف كل صباح».

وضع قبلة على جبينها وهو يغمض عينيه وكأنه يجلس رائحتها ويسجنها في صدره قبل أن يرحل، تقدم خطوتين تجاه باب الغرفة ثم نظر إليها مرة أخرى ثم رحل.

عندما وصل والد حنين وشريف عند المشفى لم يكن قد مر على وصول بجاد وقت طويل، فضل شريف أن يبقى في السيارة ولا يصعد، فقد يحتاج والد حنين أن يتحدث مع بجاد منفردين، الليل قد ألقى بظلاله على القاهرة ونيلها والقمر المبتور أرسل ما تيسر له من النور، لكن النجوم المنشورة زينت ما نقص منه، وأعانتة في تقصيره. وقف شريف خارج السيارة يتأمل السماء الغيوم التي تخفي القمر تارة وتنقشع عنه تارة أخرى. فجأة وقف هشام بسيارته أمام المشفى، كان يبدو عليه الاضطراب والتردد، لم يترجل عن السيارة. مكث بعض الوقت ثم نزل وتوجه إلى باب المشفى. كان شريف يلاحقه بعينه وفكر أن يلحق به ويتحدث معه، وقبل أن يخطو خطوة واحدة أبصر راندا تركض خلفه مسرعة، فوقف في مكانه مرتبًا لما يحدث، يسأل نفسه ما هذه الحماقات التي تحدث، هل نجحت لعبته في أن يجعل راندا تتخلى

عن حظرها أم أنهم أذكى مما توقع. تراجعت راندا للوراء قليلاً عندما رأت هشام يقف عند موظف الاستقبال يسأله عن غرفة حنين ثم لحقت به واستقلت المصعد الآخر، أمام غرفة حنين كان يقف والدها يشاهد بجاد من بعيد وهو يبكي ابنته ممسكاً بيدها ويفكر في مقدار الأذى الذي قد يكون تسبب فيه لابنته، تمنى من الله أن يجعلها تسمع وتشعر بما يراه من حب وعطف واحتياج لدى بجاد، يقول بينه وبين نفسه «إن كنت لا أستحق أن تعيدها للحياة من أجلي، فافعل من أجل هذا الرجل».

هكذا كان حال هشام كان ينظر من بعيد على والد حنين، ويراقب كفه وهو يمسح قطرات الدموع التي تسقط من عينيه، فلم يكن صعب عليه أن يتخيل ما كان يشاهده بين حنين والحبيب العائد من الماضي الذي اكتفى أنه لم ينته بعد، كانت عيناه ترسل اتهامات لا حصر لها، تتم بينه وبين نفسه قائلاً أبعدتني عنها دوماً، كنت مستعداً أن أصفح عنك لخاطرها، ورغم ذلك لم أجد منك سوى الرفض». بينما وقفت راندا تطالع هشام من بعيد، تعلم ما يجول في رأسه، تدرك ما يشعر به، وهي تشعر أنه يستحق ما يلاقيه من عذاب الآن، ورغم ذلك ما زال الحزن يعتصرها.

كان المشهد غريباً لمن يطالعه من بعيد. كل يشاهد الآخر دون أن ينتبه، يتهم الآخر بالأذى الذي ألحقه بنفسه، والذي ألحقه بحنين، جمعهم حنين كما فرقتهم أيضاً، جمعهم الأذى وفرقتهم الحب.

ليلة الحادثة

بعد أن أنهت حنين مكالمتها معه أخذت التيممة وذهبت إلى حمام غرفتها ووضعتها تحت الماء لتغسلها مما علق بها من غبار، باغتها رنين هاتفها فارتبكت وسقطت التيممة في بالوعة الحوض، حاولت أن تمد يدها لالتقاطها، لكنها علقت بعيداً ولم تستطع أن تنتشلها، عادت إلى الغرفة وأخذت الملقط من صندوق أدواتها وحاولت أن تجذبه لكنه سقط مرة أخرى، فتركته وذهبت مسرعة لترد على الاتصال.

- راندا

- لماذا تأخرت في الإجابة يا حنين؟ ألسنت بالبيت؟

- بلى أنا بالبيت لكنني انشغلت بشيء ما، هل ذهبت إلى الفندق؟

ضحكت بصوت عالٍ ثم قالت:

- نعم. أنا ببولاق الآن

- ببولاق؟!!

- نعم الجهة المقابلة لحي الزمالك اسمها ببولاق

صمتت قليلاً ثم أردفت قائلة:

- يبدو أنك انزعجت من اسم الحي! لا تقلقي هذا الفندق

لديه أفضل الإطلالات على الإطلاق، وهو الأفخم أيضاً،

سيكون المعرض أكثر من رائع، استثنائي.. ثقي بي.

- ليس لدي أفضل منك لأثق فيه!

وقعت كلمات حنين على مسامع راندا كأزيز الرصاص،
تعلم في أغوار نفسها أنها لا تستحق هذه الثقة، لم ترغب قط في
سماع تلك الكلمات في هذا الوقت بالتحديد وهي تحدثها فقط
للتأكد من أنها بالبيت، بعد أن أخبرها هشام أنه ذاهب إليها،
انتبهت حنين لشروء راندا فنبهتها قائلة:

- راندا هل ما زال الخط مفتوحًا؟!

أجابتها وهي تحاول إخفاء ارتباكها قائلة:

- نعم أنا معك، سأرسل لك بعض الصور التقطتها بنفسني
لكي يطمئن قلبك.

أمعنت حنين في توجيه طعنات أخرى لضمير راندا
المعطوب قائلة:

- أثق في رأيك، أنت صديقتي الوحيدة وأخت روحي..
أحبك راندا.

أجابتها وهي تحاول أن تشد من أزر قسوتها قائلة:
- وأنا أيضًا أحبك.

أنهت المكالمة ومكثت في مكانها لوهلة لالتقاط أنفاسها التي
سلبتها كلمات حنين، ثم وضعت نظارتها الشمسية ونزلت إلى
ساحة انتظار السيارات بالفندق لتأخذ سيارتها وتمضي.

دير الجبل - الإيمان

ما شاهده هشام كان بمثابة هاوية غائرة يسقط منها، ولا يرى بأي أرض سيرتطم جسده، كانت الغرفة مظلمة، لكن النافذة المظلة على غرفتها كشفت له عن ظل بجاد وهو مقترب منها حد العناق، هاجمته الغيرة بشراسة وعنف، ولم يستطع أن يبقى للحظة واحدة وهو يرى والدها يبارك هذا اللقاء، عندما رآته راندا يرحل، اختبأت خلف الجدار لكي لا يراها، لكن الحالة السيئة التي رآته فيها اثارت فضولها فاقتربت إلى حيث وقف هشام يشاهد ما أزعجه بهذا الشكل. عندما رأت بجاد داخل غرفة حنين هرولت مسرعة لتلحق بهشام، أدركته وهو يخرج من باب المشفى وأوقفته.

قالت بنبرة بها شيء من الشماتة:

- أعتقد أنك تأكدت مما أخبرتك به.

اقتربت منه ثم أردفت قائلة:

- هل تعلم لم أكن لأجد دليلاً لما قلته لك أفضل من ذلك.

نظر إليها بحنق شديد ثم أمسك بذراعها بقوة قائلاً:

- أكنت تتعقبيني؟!!

جذبت ذراعها منه بقوة ثم قالت له:

- نعم، تعقبتك، أردت فقط أن أراك وأنت ترى هذا المشهد الغرامي بعينيك.

اشتد غيظه منها ونظر إليها وقد ملأ عينيه البغض ثم قال:

- لا أريد أن أرى وجهك مرة أخرى.

قالت وما زالت تنظر إليه ذات النظرة الشامتة:

- اطمئن لن تراه.. لكنني لن أرحل قبل أن أقول لك أمرًا

هامًا.. حنين لم تحب في حياتها سوى بجاد عندما انفصلت عنه

كانت مثل الطيف لشهور طويلة، رأيت معانتها بنفسي، كانت

كالجثة؛ كجسد بلا روح، أنت بالنسبة لها لم تكن إلا مثيرًا ذكرها

بأنها ما زالت على قيد الحياة، لم تحبك قط.

قالت تلك الكلمات لتزيد من غضبه وحزنه وتضاعف

حجم خسارته، وقف في مكانه يتلفت حوله، يريد أن يطلق

صرخة عالية، لكنه أطبق عليها في صدره ولم يسمح لها بالخروج،

تقدم نحو سيارته وهو يجر ذنب الخيبة، ركب سيارته وهو يضغط

على مكبح البنزين بقوة ورحل من أمام المشفى.

كان شريف لا يزال واقفًا يتابع المشهد من بعيد وقد تأكد

تمامًا أن هناك سوءًا دُبّر بين هذين الاثنين لحنين.

بعد دقائق قليلة أقبل عليه بجاد وقد بدا عليه الإرهاق

والتعب، تأمله شريف في صمت وهو يفكر هل يخبره بما رآه منذ

قليل أم لا، أنهى بجاد حالة الصمت تلك قائلاً:

- هلا تحركنا من هنا؟
 - هل أنت بخير؟
 أجابه وهو يحاول إخفاء وجهه ملتفتًا يمينًا ويسارًا:
 - نعم بخير لا تقلق.
 ركبا السيارة، وأدار شريف محركها ثم نظر إلى بجاد وسأله:
 - هل قابلت والد حنين؟
 - نعم قابلته، لكننا لم نتحدث أخبرني فقط أنه سيبقى في
 المشفى الليلة.
 - لنذهب إذا.

كان بجاد يحملق في الطريق ولا يتحدث، وجه حنين
 الشاحب وعيناها المقفولتان لم يفارقا خياله. نشر الحزن جنوده
 وأتباعه في هذا الليل العتيد الظلام. القاهرة تأن ونهرها غاضبًا،
 رغم أن أنوارها لم تحب، لم تضعف، ولم يضمن سطح الماء من
 حملها، ظل بجاد صامتًا حتى قطع شريف هذا الصمت قائلاً:
 - أسير في ليل القاهرة.

وعينا مفتوحتان
 ليلة أهرب من المجهول
 وأخرى أجد للمجهول دليلين
 دليل داخل نفسي لا أراه
 والآخر هو نفسي
 إن سقطت من عيني دمعتان

التفت إليه بجاد وقد راق له ما لفظ به شريف فسأله:
- لمن هذه الكلمات؟

- لا أعلم سمعتها ذات مرة ولم أنسها قط.
قال بجاد وهو يغمض عينيه ويريح رأسه على المقعد:
- تستحق.

نظر إليه شريف وقد بدا على وجهه التردد فيما سيقوله:
- الحزن من أصدق وأقدس المشاعر التي نشعر بها، له
هيبة وكبرياء لا ينازله أي شعور إنساني آخر في ذلك، عش تلك
اللحظة إلى منتهاها.

- هل ترى أن الحزن شعور يجدر بنا العيش فيه؟
- نعم.. الحب والحزن والسعادة والألم والفراق.. كل ما
يجعل نبضات قلبك تسرع وتقرع بشدة، إلا شعور واحد يجب
أن تتخلص منه على الفور.
- ما هو؟

- الخوف، رغم أنه من أصدق المشاعر، لكنه سيجعل منك
إنساناً ضعيفاً، متعثراً في كل شيء.

ترك شريف بجاد عند بيته ورحل بعد أن اتفق معه أن يلتقيا
في الغد، لم يقف عقله عن التفكير لحظة واحدة فيما رآه الليلة،
وتأكد أن التصرف بدهاء وتحوط هو الحل الأمثل والخلاف الذي
نشب بين راندا وهشام يجب استغلاله فربما يشي أحدهم بالآخر.

وحده الساهر يعلم كيف يتلاشى الظلام ويحترق نور الصباح سيمفونية الليل الهادئة بصخبه وأبوابه المفتوحة على حكايا الناس التي تبدأ بسماع اول احتكاك احزية المارة بالشارع، لم تبرح الدموع جفون هشام، سلم نفسه لها تمامًا كما سلم نفسه لأكواب القهوة كوبًا فكوب، فأضحى لا يدرك عددها، ربما هي من شربته لم يكن هو من يشربها، ربما وجد المواساة في لونها الداكن ومرارة مذاقها ورائحتها التي تذكره بصباحات مرحة رحلت ولن تعود، شعر بألم في معدته ربما لأنه نسى الأكل لساعات أو ربما لأن أكواب القهوة لم تفرغ أيضًا لساعات. أراح جسده المنهك على الكنبه وأغمض جفنيه لدقائق، لكن النوم لم يذكره خذله في النهار كما فعل في الليل، يعلو صدره ويهبط بأنفاس منهكة كمهر جازع في صحراء عريضة لا تنتهي، حاول جاهدًا أن يبعثر أفكاره ليسلم وعيه للنوم وما بين فكرة وأخرى جاء رنين هاتفه مباغتًا، نظر في شاشة الهاتف فوجد اسم شريف أجاب عليه مسرعًا وقد توجس مما سيسمعه منه.

- صباح الخير يا هشام.

- صباح الخير، ما الأمر؟

- أعذر لك لم انتبه للوقت، فأنا استيقظ مبكرًا، هل

أزعجت نومك؟

- لا، أنا أيضًا أستيقظ مبكرًا.

- عظيم... هل يمكنك المرور عليّ في العيادة.

أجابه هشام وهو يحاول إخفاء ارتبائه:

- بالتأكيد، أي ساعة مناسبة لك؟

- بعد انتهاء العيادة... أي بعد الساعة التاسعة، يناسبك

ذلك؟

- يناسبني.

- جيد.. سأنتظرك.

أنهى هشام المكالمة، وقد انتابه القلق بشدة، وانهاالت عليه الأفكار البعيدة منها والقريبة، هو يعلم جيداً أن حنين امتنعت عن الذهاب إليه منذ وقت طويل بعد تلك المشكلة التي حدثت بينه وبين والدها، فكر في أن يهاتف راندا لكنه تراجع على الفور، لم يرد إقحامها في أي شيء يخصه أو يخص حنين، أمسك بكوب القهوة الفارغ وذهب ليملاؤه مرة أخرى ثم تراجع وتناول قرص مهدئ وهو يرجوه أن يجلب له النوم الذي عصاه بلا رحمة.

سبقت المحادثة التي جرت بين شريف وهشام، محادثة أخرى بين شريف وبجاد أخبره فيها ما جرى في الليلة السابقة، وتفاعلاً شريف بوابل من اللوم والامتنعاض من بجاد لأنه لم يخبره إلا في اليوم التالي، لكن شريف أقنعه أن حالته لم تكن تسمح بإخباره، طلب منه شريف أن يترك له الأمر فقد يشكل

تدخله خطورة. كان بجاد يدرك ذلك في قرار نفسه، ويعلم أن شريف على صواب وعلى غرار ذلك كان شريف يؤمن أن ما يطلبه من بجاد بمثابة جهاد النفس في ارتكاب معصية، لكنه كان يراهن على أن بجاد سوف يغلب المصلحة فلطالما أخبرته حين عن حكمته وقوته وقدرته على التحكم في مشاعره والسيطرة عليها، كانت الخطة هي أن يعرف ماذا حدث بين هشام وحنين منذ انقطاع حنين عن جلسات العلاج وأن يحاول دفع هشام للتحديث عن راندا ليعرف ماهية العلاقة بينهم.

طلب شريف من مساعده منعم أن يرحل من العيادة بعد أن يدخل المريض الأخير. أنهى شريف الجلسة قبل أن تتجاوز الساعة الثامنة والنصف، فجلس يقرأ كتاباً قد بدأ في قرأته في وقت سابق ولم ينتهي منه إلى أن يأتي هشام. جذبه الكتاب بشدة الذي يروي حكايات وتاريخ أهم الكنائس والأديرة في القاهرة، لكل كنيسة قصة ونضال ما وإيمان، بعضها حاربت التخلف والعنصرية والتطرف في الداخل، وواجهت تحديات أقوى من أي تحدٍ تعدى عليها من الخارج، القاهرة القديمة وليدة الحقبة الإسلامية لكن راعتها واحتضنتها الثقافة القبطية لم تبخل عليها وأعطتها أكثر ما أخذت منها، لم يتبها للوقت الذي مر بسرعة وهو غارق في تفاصيل الحكايات والروايات والمعجزات التي لم تنضب منابعها بعد، دق جرس هاتفه، كان هشام المتصل يخبره

بأن باب العيادة مغلق، اعتذر منه شريف لأنه لم ينتبه لصوت الجرس وأسرع إليه وفتح الباب له.
تبادل شريف وهشام النظرات ثم ابتسم له شريف واحتضنه قائلاً:

- حمداً لله على سلامتك

- الله يسلمك

تقدم هشام بخطوات بطيئة وهو يتأمل العيادة وخلفه شريف يتابع نظراته، ثم قال:

- هل تغيرت العيادة كثيراً منذ آخر مرة؟

- نعم تغيرت قليلاً، لكنها احتفظت بذات الروح.

دخلا المكتب، وجلس هشام على نفس المقعد الذي اعتاد الجلوس عليه، ذهب شريف إلى "حرم الكافيين" وبدأ تحضير القهوة ثم قال:

- لا تقلق ما زلت أتذكر مذاق قهوتك.

- أنت لا تنسى شيء أبداً.

- هل تشفق عليّ أم تحسدني.

- لا هذا ولا ذاك.

صمت لوهلة ثم سأله:

- أنت ماذا تظن؟

تنهد شريف ثم قال:

- أنا أراه إطرأء، ولكنه قد يقع بالسوء على مسامع البعض
كمن يهنئ أحداً على وجع الرأس.

ضحك الاثنان ثم قال هشام:

- اظن أن الذاكرة القوية وبالأعلى صاحبها.

وضع شريف كوب القهوة أمام هشام وتابعه بحذر بأي يد
سوف يمسك الكوب، أمسك هشام كوب القهوة بيده اليمنى،
ارتشف منها رشفة ثم وضعها مرة أخرى، لاحظ هشام شروده
فقال له:

- هل كان يومك صعب؟

- لماذا؟

- يبدو عليك التعب.

- لا بالعكس، مرضى اليوم من النوع السهل.

- وهل هناك نوع سهل ونوع صعب؟

- قطعاً... المريض الذي يعاني من اضطرابات نفسية بسبب

ظروف عصيبة مر بها أو صدمة قوية، علاجهم فقط هو الوقت،
بزوال الظروف يزول التعب. عموماً هؤلاء لا أنعتهم بالمرضى.

كان السؤال يقف على طرف لسان هشام ولا يلفظه، "ماذا

تريد؟!" حاول شريف أن يثير أعصابه بصمته، يتابع توتره وعيناه

الزائغتان، وهو يحاول إبعادهما عن مرمى بصر شريف.

أنهى هشام قهوته ووضع الكوب الفارغ على الطاولة، ونظر

إلى شريف ثم قال:

- مؤكدة تابعت ما حدث لحنين.
- طبعًا.
- كيف حالها الآن.
- وظائف جسمها الحيوية في حالة جيدة جدًا، لكنها ما زالت في غيبوبة.
- ومتى تفوق منها؟
- لا أحد يعلم، ربما تظل لشهور، وربما تفوق غدًا. تلك الحالة لا يمكن توقع فترة زمنية لها.
- أتمنى لها الشفاء العاجل.
- مال شريف بجسده للأمام وهو يضم ذراعيه ثم سأله:
- ماذا حدث يا هشام؟ هل تشاجرتما؟
- لا.. لم نتشاجر.. لكنني لا أعفي نفسي من المسؤولية.
- لم أفهم!
- قبل الحادثة بشهر طلبت حنين أن ننهي علاقتنا.
- لماذا؟

- قالت إنها عندما أخبرت والدها عن أمرنا لم يرض عن العلاقة، وأنها حاولت اقناعه لكنها لم تنجح، لكنني لم أقنع بكلامها، خاصة عندما طلبت منها أن أتحدث معه بنفسه عندما يعود إلى مصر ورفضت، شعرت أن هناك شيئًا تخفيه ولا تريد أن

تخبرني إياه.

- وهل عرفت فيما بعد ماذا تخفي عنك حنين؟
- لا لم أعرف، كانت كرامتي ثائرة وقلبي مفطور.
- سأله شريف بخبث:
- وراندا؟

انزعج هشام من ذكر اسم راندا وسأله مرتبكا:

- راندا؟!!

- أقصد لما لم تتحدث مع راندا، في النهاية هي صديقتها الوحيدة وبالتأكيد أخبرتها به.
- لم يرد في ذهني أن أفعل ذلك..
- صمت قليلا ثم أكمل حديثه قائلاً:
- اعتقد إن كانت حنين أخبرتها بما أخفته عني، ما كانت راندا ستبوح به، كما أن علاقتي براندا لم تكن تسمح بأن أقحمها في حياتي.

أوما له شريف برأسه وحاجبيه ثم سأله:

- إن كان الأمر كذلك لماذا ذهبت إليها ليلة الحادثة؟
- حدثني ليلتها وكانت تبكي بشدة، وطلبت مني أن أذهب إليها، كانت حالتها سيئة جداً، وكنت قاسياً عليها جداً، طلبت مني أن نتزوج ولا ننتظر موافقة والدها، لكنني رفضت طلبها وأهنتها بشدة، وتركتها ورحلت.

كان كلام هشام مرتباً ومنمقاً حد التصديق، لولا مراوغته فيما يخص علاقته براندا. وادعاؤه أن علاقته بها لم تكن تسمح بأن يدخلها في تفاصيل حياته. تظاهر شريف اقتناعه بكلام هشام والشك يعتد في داخله أراد بشدة أن يعرف ما حدث بينه وبين حنين في تلك الليلة، قد لا يكون حقاً هو من فعل ذلك في حنين بنفسه وهي من فعلت، لكن لا بد من وجود دافع، مثير، واقع قاس جعل الحياة أكثر ألماً من الموت، بينما كان يحاول شريف التقاط طرف خيط من حديث هشام دق جرس تليفونه كان أحد مرضاه، فجأة برقت فكرة في رأسه، وضع الهاتف على أذنه وابتعد قليلاً عن المكتب، أشار لهشام من بعيد أن يكتب ما سيمليه عليه، أمسك هشام القلم وبدأ يكتب، ووقف شريف ينظر إليه مشدوهاً.

في صباح ليلة طويلة قضاها والد حنين بجوار ابنته، يطالعها في حين ويحدثها في أحيان أخرى. القت شمس النهار فتات من نورها وكأنها لم ترد ازعاج النائمين. كان السبات العميق من حظ حنين، بينما النوم المتقطع من نصيب والدها، فكان هيناً عليه أن ينفذه عن جفنيه بمجرد سماع دقة واحدة على باب الغرفة. كانت الممرضة، اعتذرت عن دخولها المفاجئ قائلة:

- أعتذر يا سيد إبراهيم عن إزعاجك مبكراً، لم يعلمني أحد

أنك بالغرفة.

- لا عليك. استيقظ مبكرًا.

- سأطمئن على حالة الأنسة حنين وأضع لها الدواء في المحلول وأذهب.

- ليكن.. سأخرج. احتاج كوبًا من القهوة.

خرج من الغرفة متجهًا إلى الكافيتريا، وقبل أن يصل أبصر راندا تأتي من بعيد. وقف ينتظرها، فأسرعت خطواتها، وعلى مقربة منه مدت يدها لتسلم عليه وهي تقول:

- صباح الخير يا عمي.. كيف حال حنين اليوم؟

- كما هي، لا جديد.

- حاولت أن أراها أكثر من مرة لكن طبيبها لم يسمح لي، هلا تطلب منه أن يفعل؟

- نعم، حالتها لم تكن تسمح بالزيارة، اذهبي يا ابنتي إليها، وتحديثي معها، ربما ينفعها ذلك. سأوافيك بعد قليل.
- أتمنى ذلك، بالإذن.

ذهبت راندا بخطى مترنحة متخبطة، تحدثها نفسها متعجبة عما جاء بها إلى هنا، ألم حنين وحتى وجعها ورقدتها تحت ثنایا هذا الفراش الأبيض لم يكن أكثر إيلاّمًا من الوجع الذي تشعر به روحها لأنها لم تنل ما تتمناه. جلست على المقعد تراقبها والصمت يلزمها، تشحذها بنظراتها، ترصد صدرها وهو يعلو

ويهبط وتتمنى لو يهبط ولا يعلو مرة أخرى، تحدث نفسها في صمت قائلة:

- ما زلت قوية يا حنين، تصارعين الموت حتى وأنت في هذا الضعف والعجز وقلة الحيلة، ما زلت تستحوذين على قلب هشام بجبروت شديد، لماذا تتمسكين هكذا بالحياة؟ فعلت كل شيء لأخرجك من حياتنا لكنني لم أنجح. بدأت الدموع تترقرق في عينيها، لكنها أغمدها بسرعة قبل أن تسقط ثم قالت مستعطفة:

- ارحلي.. أرجوكي.. سيكون في ذلك خير للجميع سكنت لوهلة ثم نهضت واتجهت نحو الباب ثم ألقت عليها نظرة وفتحت الباب وذهبت.

جلس بجاد ممسكاً بجهازه اللوحي يشاهد راندا وهي ترمق حنين بنظرات حادة كسهام محارب في ساحة قتال، لم ينفك من الاتصال بشريف ليخبره بما يراه ليفعل أي شيء، كان يشعر أن راندا ستغرس سكيناً في صدر حنين من قسوة ملامحها وضراوة النظرات التي تطلقها عيناها.

عندما انتبه شريف لهاتفه ووجد أكثر من خمسة اتصالات من بجاد شعر بقلق شديد واتصل به على الفور، انطلق صوت بجاد عبر الهاتف قائلاً:

- ماذا دهاك يا رجل، لماذا لا تجيب على الهاتف؟

أجابه بنبرة هادئة:

- يا سيادة النائب عليك أن تفهم أنني طبيب أمراض نفسية،

لا أحتاج أن يبقى هاتفي متاحًا طوال الوقت!

- لا عليك.

- ماذا حدث؟

- راندا ذهبت إلى حنين، كانت غاضبة وبائسة، أحسست

أنها ستؤذيها، فاتصلت بك لتحذر والدها بأي شكل.

- أهذه الدرجة؟!

صمت لوهلة ثم أردف قائلاً:

- ولماذا أردت أن أخبر والدها بنفسي إذا كنت شاهدت

ذلك بعينيك، لماذا لم تنبهه أنت؟!

- ليس لدي رقمه.

- ما هذا؟ لم أفهم شيئاً! ألم تكن في المشفى؟!

- لا لم أكن.. سأشرح لك فيما بعد. يجب أن نلتقي.

- أظن ذلك.. أنا سأذهب إلى المشفى وأطمئن على حالتها،

انتظرنى في مكتبك سأمر عليك.

أنهى بجاد المكالمة وعاد إلى عمله مرة أخرى، بعد قليل دق

جرس هاتفه، عندما نظر إلى اسم المتصل أجاب سريعاً:

- كيف حالك يا صديقي؟

انطلق صوت من يحدثه قائلاً:

- أنا بخير الحمد لله، أعتذر على تأخري، لا أعلم إن كان ما سأقوله لك مفيداً أم لا.

سأله بجاد متحمساً:

- هل وجدت شيئاً؟

- نعم، الصورة التي أرسلتها لي لشخص اسمه أكرم محارب وليس هشام محارب، وقد توفي منتحراً منذ عامين.

عندما عاد والد حنين إلى غرفتها؛ كانت هناك مفاجأة غير متوقعة، عينا حنين مفتوحتان، تحملقان في أرجاء الغرفة مندهشة، اقترب منها أكثر وأمعن النظر في وجهها، يقترب منها تارة ويتجه نحو الباب تارة أخرى، ثم خرج مسرعاً من الغرفة ينادي على طبيبتها وهو يصرخ قائلاً « فافت ابنتي »، « ابنتي بخير ».

أسرعت الممرضة ودخلت الغرفة ولحق بها الوالد، وبعد دقائق قليلة هروا إليه باسل وانطلق مسرعاً داخل غرفة حنين، نظر إليها نظرة سريعة، ثم تفقد الأجهزة ليتأكد من نبضها وقياس ضغط دمها، ثم اقترب منها ونظر إليها بتمعن، ثم قال:

- حنين هل تسمعينني؟

لم تجبه لكنها نظرت إليها بوهن، وبعينها اندهاش وتساؤل، لكنها لم تستطع إطلاق كلمة واحدة.

- لا تقلقي، أنا دكتور باسل طبيبك المعالج.

كان والد حنين يقف بعيداً يتأملها مرتعداً، نظر إليه باسل مبتسماً، وأوماً برأسه لأسفل بالإيجاب ليطمئنه، ثم نظر إلى حنين مرة أخرى وسألها إن كانت تقدر أن تحرك ساقها لأعلى، ففعلت، أمسك يدها ثم سألها "الآن هل تستطيعين أن تطبقي بأصابعك على يدي؟"، عندما نجحت حنين في فعل ذلك، قال لها "حمداً لله على سلامتك".

اقرب والدها خطوات ضئيلة وهو يلقي نظرة إليها ثم نظرة إلى باسل، تقدم إليه باسل قائلاً:

- أعتقد أنها بحالة جيدة.. هي الآن تشعر ببعض الضعف، لكنها ستكون أفضل، الآن يمكنني أن أقول لك مباركاً لك شفاء ابنتك.

انطلقت الدموع من عيني والد حنين، واحدة بعد الأخرى كجنود في ساحة القتال قد تلقوا للتو من قائدهم أمراً بالزحف، وهو يشكر باسل بحرارة، واتجه نحو ابنته، جلس بجوارها يتأمل وجهها ويمسح بكفه على شعرها وهي تنظر إليه وقد ملأ الاندهاش قسماً وجهها.

قبل أن يصل شريف إلى المشفى حاول مراراً أن يحدث والد حنين، لكنه لم يجب على اتصالاته، فاتصل بباسل ليطمئن على حالة حنين، أخبره باسل بما حدث، وعندما سألته عن والد

حنين أخبره أنه لم يبرح غرفة حنين منذ أن عادت إلى وعيها، فطلب منه أن ينتظره عند باب الغرفة ليتمكن من رؤيتها. وصل شريف المشفى وقد امتزج داخله شعورًا بالتوتر والفرحة في ذات الوقت. صعد إلى غرفة حنين مسرعًا. كان باسل يقف أمام باب الغرفة ينتظره، نظر إليه مبتسمًا ثم مد له كفه قائلاً:

- السلام على محبي السلام.

عانقه شريف ثم قال له:

- السلام على رسل السلام.

ضحك الاثنان بصوت عالٍ ثم سأله شريف:

- أخبرني.. هل حدث جديد في حالتها جعلها تستيقظ؟

- لا.. سبق وأن أخبرتك أنها قد تستيقظ في أي وقت.

- هل عادت لوعيها بالكامل؟ أقصد إدراكها.. تعرفت على

والدها وتذكرت ما حدث؟

- لا ليس بعد.. لكن المخ يتحكم في أطراف جسدها بشكل

جيد..

- الشكر لله... هل ما زال والدها معها؟

ابتسم باسل بحنو ثم فتح باب الغرفة برفق قائلاً:

- ألق نظرة.

كان والد حنين مستلقي بجوارها ويحيطها بذراعه وغائص

في النوم، صرير الباب نبه حنين، ففتحت عينيها ونظرت جهة

الباب الذي أطل منه شريف على استحياء، أطلت عينان حبيبتان إلى نفسها، ووجه قريب من روحها، وابتسامة تألفها كانت غائبة، وتراها الآن، نظرت بتمعن وعندما أدركته اعتدلت قليلاً ومدت له يدها تدعوه بأن يقترب منها، نظر إلى باسل الذي بدا مضطرباً ومترددًا في أن يسمح له بالدخول، لكن نظرات حنين المسترحمة جعلته يسمح له بالدخول، التقط شريف يدها التي بسطتها في الهواء مرتعشة كعصفور جريح جلس أمام مضجعها في قرفصاء ثم سألها هامسًا:

- كيف حالك؟

أومأت برأسها لأسفل مبتسمة في إشارة منها أنها بخير، فأردف شريف قائلاً:

- ستكونين أفضل.

انتبه والدها للصوت والحركة واستيقظ من النوم، فنهض شريف من مكانه قائلاً:

- حمدًا له على سلامة حنين يا سيد إبراهيم.

- أشكرك.. كيف عرفت أن حنين عادت إلى وعيها؟

نظر إلى حنين نظرة خاطفة ثم أجابه قائلاً:

- لم أعرف.. لقد تفاجأت بالأمر.. كنت بالجوار فمررت لأطمئن عليكم.

صمت الجميع لثوان قليلة ثم قطعت حنين الصمت قائلة:

- أبي هلا تركتني مع دكتور شريف قليلاً؟
ابتسم لسماع صوتها، ثم أنحنى وقبل جبينها قائلاً:
- كما تشاءين سأكون في الخارج.

خرج من الغرفة سعيداً ولم يعط بالاً أنها طلبت البقاء مع شريف منفردين، فتح الباب وخرج، ثم ألقى عليهم نظرة سريعة مبتسماً قبل أن يغلق الباب خلفه.

استقامت حنين برفق في فراشها وساعدها شريف واضعاً خلف رأسها وسادة، ثم ذهب وفتح ستائر الشباك برفق لكي لا يملأ النور الغرفة فجأة، ترك مساحة صغيرة مفتوحة ليدخل شعاع من نور الصباح إلى غرفتها، أخذ نفساً عميقاً وهو ينظر من الشباك، هدأت حنين قليلاً بعد رؤية ضوء النهار يتسلل إلى عينيها. جاء صوتها من ورائه قائلاً:

- أشعر أنني آتية من مكان بعيد، وكأنني مشيت لأيام طويلة، أشعر بغربة شديدة ونظرات الجميع تربكني، شردت قليلاً وصمتت لوهلة، ثم أردفت متسائلة:

- أتظن ما أشعر به هو ذات الشعور الذي يشعر به جنين مقبل للتو على الحياة؟!!

نظر إليها مبتسماً وجلس بجوارها، وربت على يدها ثم قال:
- أمر طبيعي يا حنين قضيت وقتاً طويلاً في الغيبوبة، أتمنى لك أن يكون شعورك حقيقياً؛ لأن المولود لا يشعر بالخوف من

الحياة التي أقبل عليها.

صمتت لوهلة ثم سألتها:

- هل تعلم كم مر من الوقت وأنا فاقدة للوعي؟

ربت على يدها ثم قال:

- قرابة الشهر.

- شهر؟!!

- وهل تعرف ماذا حدث لي؟

صمتت شريف وأخذ يحملق في وجهها مدهوشًا، ثم سألتها:

- ألا تعلمين لما أنت هنا؟

- لا.. ولا أعلم كيف يعاملك والدي بهذه الرقة بعد ما

حدث بينكم!

اقترب شريف منها وسألها متحمسًا:

- هلا تخبريني ما هو آخر شيء تتذكرينه الآن وأعدك أني

سأخبرك بكل شيء؟

خرج شريف من الغرفة بعد أن روى لها ما حدث معها؛

دون أن يخوض في التفاصيل، أراد فقط أن ينشط ذاكرتها. كان

والدها ما زال ينتظر أمام الباب وعندما خرج شريف من الغرفة

سأله وقد ملأ القلق عينيه:

- هل أخبرتك حين بشيء؟

- لا لم تخبرني.. أنا من أخبرتها.

- ماذا تعني؟

- يبدو أن الصدمة جعلت عقلها يمحو من ذاكرتها تفاصيل الحادثة.

انزعج والدها بعد أن سمع ما قاله شريف وصمت لوهلة ثم طرق بيده الجدار واستند برأسه على يده وسكن قليلاً ثم نظر إليه بغضب قائلاً:

- لماذا إذاً أخبرتها دون علمي أو علم دكتور باسل؟!

قطب شريف حاجبيه ثم أجابه منزعجاً:

- يبدو أنك نسيت يا سيد إبراهيم أن حنين تعرفني أنا وتثق بي أنا وليس باسل، كما أن حنين تحتاج طبيباً نفسياً لتستعيد ذاكرتها وعافيتها، مهمة باسل كجراح انتهت.

نظر إليه وقد بدا عليه بعض الندم للطريقة التي تحدث بها مع شريف ثم التفت إليه وقال أسفاً:

- اعتذر منك يا دكتور، لقد أعفيتني من مهمة كانت ستكون صعبة عليّ وعلى ابنتي.

- لا عليك يا سيد إبراهيم أقدر حالتك وخوفك على ابنتك أنهى الحديث معه وخرج مسرعاً ليمر على بجاد كما اتفق معه، اتصل به وأخبره أنه في الطريق. فاجأه بجاد وسأله "حنين استيقظت؟".

عادت راندا إلى بيتها وهي تقذف بحذائها بعيداً عنها، ثم ألقت جسدها المنهك على سريرها واجهشت في البكاء، وضعت وجهها في الوسادة وسمحت لصراخها المكبوت أن ينطلق مكتوماً في أكوام القطن المحشوة بها الوسادة، صراخ سنين، صراخ يأس، وحزن، وإحباط، صمت فجأة وبدأت تلتقط أنفاسها، ودموعها ما زالت تنهمر من عينيها، شيء ما خطر في ذهنها جعلها لا تقوى على إخماد النيران التي تنطلق من عينيها، تذكرت والدتها التي لم ترها منذ سنوات، منذ أن وضعتها في دار العجزة ورفضت أمها زيارتها، هداً بكاءً قليلاً، وبدأت تخطو خطوات مترنحة تجاه الحمام، فتحت الصنبور وبدأت تتلقى المياه بين كفوفها وتلقي ما تبقى منها على وجهها.

بدلت ملابسها وذهبت لشراء بعض الحلوى لتأخذها بعد أن عازمت على الذهاب إلى والدتها، رغم ما كانت تشعر به من خوف ورهبة من هذا اللقاء إلا أنها كانت تشعر بشوق شديد إليها، وكأن تلك السنوات الطويلة التي مضت دون أن تشتاق إليها تجمعت في تلك اللحظة لتنفث داخلها وحشتها وظلمة لياليها التي مرقت دون أن تجد من ينتظرها قلقاً، من لا ينهي أمسياته دون أن يقبلها ويتمنى لها أحلاماً سعيدة وغد أفضل، المأساة تبدأ بالشوق وتكتمل بخيبة الأمل، أخبرتها مديرة الدار أن والدتها ماتت منذ شهرين، تلقت الخبر كصفعة على وجهها،

هناك من أراد أن يخبرها ما أفسده الظلم وعززته السنين لا تصلحه نوبة شوق وعاطفة تبرأت من جذورها، كان الحمل ثقيلاً ومؤلماً لم تجد من يزيحه عنها أو تلومه عوضاً عن لوم نفسها، فوجهت كل حزنها وغضبها لمديرة الدار.

- كيف تكون أُمي مريضة بهذا الشكل ولا تخبرونني؟!
- اهدأي قليلاً يا آنسة راندا، تلك كانت رغبة والدتك.
انزعجت أكثر عندما سمعت ذلك وقالت غاضبة وهي تطرق بيدها على المكتب:

- أنا من جلبتها هنا، كان عليكم أن تخبرونني.
رغم أن مديرة الدار كانت تقدر الحالة التي كانت عليها راندا، إلا إنها لم تستطع أن تحتفظ بثبات الانفعالي أكثر من ذلك فنهضت من مقعدها وهي تقول بنبرة حادة:

- أعتذر منك يا آنسة، نحن لم نرك منذ أن أودعتها هنا، علاقتنا لم تكن إلا مع والدتك فقط، هي من أرادت ذلك، وهي من أوصتنا ألا نبلغك في حال وفاتها وأن ندفنها في مقابر الدار.
شحب وجه راندا بعد أن سمعت تلك الكلمات من مديرة الدار، وصمتت. شعرت مديرة الدار بقبح ما قالت وواقعه السيئ، بدا على وجهها بعض التعاطف المصطنع وربت على كتفها ثم قالت:

- لقد كانت تدعو لك دائماً، وتطلب من الله أن يعصمك

من الخطأ.

ابتسمت بسخرية ثم قالت:

- يبدو أنها لم تعد بالقدر الكافي!

خرجت من الدار ودموعها تنهمر من عينيها، ركبت سيارتها وذهبت وقد تكالبت عليها الأحزان، لا تدري إلى أين تذهب وإلى من لا تبصر سبيلاً ولا تأمل في رحمة.

حاولت حين بعد أن تركها شريف أن تتذكر ما حدث لها لكنها لم تنجح، وأخذت تفكر في الأمر، هل النسيان أفضل؟ ولكن كيف يمكنها الاختيار وهي لا تعلم ما هي عواقب ما حدث، قد يخبرها الجميع عما جرى، لكن من سيخبرها التداعيات لتختار، ضاقت صدرها من المكوث في الفراش، حاولت النهوض، أرسلت ساقها إلى الأرض وهمت واقفة، لكنها شعرت ببعض الدوار لوهلة فجلست على طرف السرير، وهدأت قليلاً، حاولت مرة أخرى الوقوف ونجحت، نظرت لشعاع الضوء المقبل من الشباك، مشت إليه بخطى وئيدة. أزاحت الستار قليلاً ثم فتحت الشباك، واستندت على الجدار وتركت نسمات الصبح الرقيقة تلامس وجهها، فتح والدها الباب وهو ينظر إلى سريرها الذي وجدته خاوياً، جال بنظره في الغرفة فوجدتها أمام الشباك وتبدو في حالة جيدة. كانت شاردة

لم تشعر بدخول والدها.

- حنين! لماذا تقفين هكذا؟ أنت لم تتعافي بعد.

قالت دون أن تلتفت إليه وعيناها تحقق في السماء:

- جدتي كانت تقول إن الأرواح الشريرة لا تدخل الملكوت،

وتبقى هائمة ومنبوذة ووحيدة، ولذلك كانوا يحتجزونها في

صناديق ويغلقون عليها بإحكام، لكي لا تسعى لتدمير كل شيء.

- لماذا تذكرتي هذا الكلام الآن؟

- كيف نتعرف على تلك الأرواح يا أبي؟ من يستطيع أن

يجزم إنها شريرة ولا سيما إن كانت داخلنا؟

تعجب جدًا لما تقوله حنين، لم يفهم ما تقصده، اقترب منها

ووضع يده على كتفها ثم قال:

- ما بك يا ابنتي أخبريني!

نظرت إليه وقد امتلأت عينيها بالدموع ثم قالت:

- انا وحيدة جدًا يا أبي. أشعر أن هناك من يعزلني حتى عن

نفسي لكي لا أعرفها، هذا العالم يخيفني كثيرًا يا أبي.

أحتضنها بقوة وربت على رأسها قائلاً:

- لا تبكي يا ابنتي، لن أتركك بعد الآن، أخطأت وتبت.

نظرت إليه وقد تسلل إليها شعور بالأمان ثم قالت:

- هلا أخبرتني بما حدث؟ أنا لا أتذكر أي شيء، لم يكن

هناك ما يزعجني ويجعلني أقتل نفسي، سأجن.

- سأخبرك حبيبتي.

طرقت الممرضة الباب وهي تحمل الطعام:

- الغداء يا سيد ابراهيم. حمدًا لله على سلامتك يا آنسة

حنين.

- أشكرك.

أمسك بيدها وجذبها واضعًا يده حول خصرها ثم قال:

- سأخبرك، إن تناولت طعامك، وأنا سأطعمك بيدي.

ابتسمت له واومأت برأسها، ثم جلست على المقعد المجاور

لسريرها، حمل والدها طعامها ووضعها على الطاولة وبدأ يطعمها.

لم يطق بجاد انتظار شريف في المكتب، وقف ينتظره في

الشارع يتحرك ذهابًا وإيابًا وينظر إلى هاتفه المحمول كل حين

وآخر، وعندما ظهرت سيارة شريف ركض مسرعًا إليه وقبل أن

يلقي عليه التحية سأل به شغف شديد:

- كيف استيقظت حنين؟ هل هي بخير؟ هل أخبرتك بشيء؟

- أخبرني أنت أولاً، هل وضعت كاميرا في غرفة حنين؟

أخذ نفسًا عميقًا وهو ينظر للجهة الأخرى ثم قال له:

- نعم فعلت، وضعتها في البرواز المعلق فوق سريرها،

شعرت أن هناك خطرًا ما يحيط بها.

- لكن هذا الأمر غير قانوني!

- إن تمسكت بكل ما هو قانوني، قد يحدث سوء لحين، ولا أستطيع أن أوقفه.

نظر إليه شريف وصمت لوهلة ثم قال له:

- لقد ذكرتني بشيء ما.

- ما هو؟

- سأريك..

انطلق مسرعًا بالسيارة، وأمام دير الجبل المعروف باسم دير سمعان توقف، كان يتأمل المكان وعلى وجهه ابتسامة، أشار إلى الدير ثم قال:

- هل تعلم قصة هذا الدير؟

زفر بجاد متأففاً وأشاح بوجهه بعيداً ثم قال:

- ها قد بدأ من جديد!

لم يعط بالاً لما قاله بجاد وأردف قائلاً:

- كان للخليفة الفاطمي "المعز لدين الله" وزيراً يهودياً اسمه

"يعقوب ابن كلس" عرف بكرهه الشديد للمسيحيين ومعاداته

لهم، فحرّض الخليفة ضدهم. قال له ذات مرة أن هناك آية في

الإنجيل تقول إن من كان له إيمان مثل حبة خردل، فإنه يقول

للجبل انتقل وأسقط في البحر فيفعل.

طلب منه أن يجبر المسيحيين إثبات "زعم" كتابهم، نال هذا

الاقتراح إعجاب الخليفة، وشعر أنه سيقنص عصفورين بطلقة

واحدة؛ سيتخلص من الجبل لإتمام مشروعاته، ومن ناحية أخرى اعتقد إن تمّ لصّ المسيحيين من تحقيق الآية الإنجيلية سيكون دليلاً على بطلان دينهم ومعتقداتهم، فبعث المعز للبطريك يعلمه بطلبه مهدداً بعواقب وخيمة إذا فشل في ذلك، ومنحه مهلة ثلاثة أيام، فقامت الكنيسة كلها في البلاد خلال تلك الفترة بالصوم والصلاة وتحدث الرواية الدينية عن ظهور مريم العذراء للبطريك في صباح اليوم الثالث، وأخبرته أن من سيتم هذه المعجزة رجلاً سيأتي حاملاً جرة ماء، وبالفعل جاء الرجل، كان إسكافياً يدعى "سمعان الخراز" طلب من البطريك أن يبقى بين الناس في اليوم المقرر لنقل الجبل، ومن هناك سوف يقوم بالصلاة، بينما يرسم البطريك علامة الصليب، وتم ذلك كما قال، فحدثت زلزلة عظيمة وتحرك الجبل حتى بانت الشمس من تحته. حاول الكثيرين التشكيك في هذه الرواية ومنهم من أرجع ما حدث للظواهر الطبيعية والمناخية، لكن الغريب أن بعد ألف عام وأثناء الحفر داخل المغارة بعد أن صارت مكاناً للعبادة للأنا "سمعان الخراز"، ظهر بروز رسم في سقف المغارة للسيدة مريم العذراء تحمل المسيح بين يديها.

استطاع شريف أن يجذب انتباه بجاد بعد أن كان متذمراً، صمت قليلاً ثم سأله:

- هل تؤمن أنت بهذه القصة؟

فكر شريف قليلاً ثم قال:

- لا أعلم، لكن أنا أؤمن أن الإيمان النابع من أعماق قلب واحد قادر أن يحرك الكون كله وليس جبلاً، فما بالك بدعاء وتضرع قلوب مؤمنة وأظن أن هذا هو المقصد الحقيقي من الآية. ابتسم بجاد ثم قال:

- سأقولها للمرة الأولى. وربما الأخيرة.. أقنعتني.

ضحك الاثنان قليلاً ثم باغت شريف بجاد بسؤال:

- كنت ستخبرني بأمر ما.. ما هو؟

انتبه بجاد لسؤال شريف وترجل عن السيارة ووقف يطالع الدير، لحق به شريف قائلاً:

- يبدو أن هناك خبراً سيئاً.

التفت بجاد له ثم قال:

- بل غموض جديد.. أخبرني صديقي الذي طلبت منه أن يتحرى عن هشام، أنه لم يجد أي معلومات عنه، وأن صورة هشام التي أرسلتها إليه، هي صورة لمهندس شاب اسمه أكرم محارب وليس هشام، وأنه مات منتحراً.

أربكت المفاجأة شريف، تداخلت الأفكار والتحليلات في رأسه، وفجأة ظهرت أمام عينيه الصورة التي وجدها عند راندا، نظر إليه وصمت لوهلة ثم سأله:

- أنت أرسلت صورة خاطئة!

قطب بجاد حاجبيه ونظر إلى شريف ثم قال:
 - أتقصد أن أكرم محارب هو من كان معه في الصورة.
 - أظن ذلك.
 ثم أردف شريف قائلاً:
 - أعتقد أن الإجابة عند راندا، يجب أن أذهب إليها
 وأواجهها بكل ما عرفناه.
 - انتظر.
 اقترب بجاد من شريف وقد باتت تعبيرات وجهه أكثر رقة
 وملاً الشوق نظراته ثم قال بحنو:
 - أريد أن أرى حنين.
 تعاطف شريف كثيراً لطلب بجاد، ثم ربت على كتفه قائلاً:
 - أقدر جداً شعورك، وأعلم جيداً أن زيارتك ستحسن
 كثيراً من حالة حنين النفسية، لكن لا يمكننا الذهاب إليها
 ورؤيتها دون أن يأذن لنا والدها.
 نظر إليه بجاد وقد أصابه الإحباط، ثم أوماً برأسه، فأردف
 شريف قائلاً:
 - لا تقلق سأحاول إقناعه.
 صمت لوهلة ثم أمسك بهاتفه قائلاً:
 - سأحدث معه الآن.

حاول هشام مرارًا أن يحدث راندا، لكنها لم تجب على اتصالاته، كان هناك شعور جديد تجاهه قد اجتاحتها، أدركته بعد وفاة والدتها، أنه العقاب وألم روحها لما اقترفته في حق أمها، تعلم أنها تستحقه، لكنها لم ترد أن يذهب دعاء أمها هباءً، أرادت أن تختفي تمامًا من حياة كل من طاهم أذى منها، ربما لم ينجح دعاء أمها في أن تعصم من الخطأ، لكنها أرادت أن ينجح في ألا تستمر فيه.

رتبت حقيبتها وقررت أن تسافر إلى مكان جديد، وأن تبدأ حياة جديدة بلا حقد أو كره، أو طمع في حياة الآخرين، دق جرس البيت. عندما فتحت الباب وجدت هشام أمامها، كان يبدو عليها الحزن والتعب، وعندما رآته أمامها دفنت رأسها في صدره واجهشت في البكاء، بينما وقف هشام باسطًا ذراعيه لا يعانقها، ثم قالت بصوت يشبه الهمس، سمعه بالكاد « أمي ماتت يا هشام! »، رق قلب هشام لها ولف ذراعيه حولها وبدأ يربت على كتفها، لم تتحمل أن تبقى بين ذراعيه لثوان، بعد شعرت أن يده تلك التي يربت بها عليها وكأنها السوط الذي يجلد بها، تحركت ببطء للوراء وهي تحرق فيه وقبل أن تنطق بكلمة، سقطت مغشيًا عليها.

حملها هشام إلى سريرها وحاول إفاقتها، لكنها كانت غارقة في النوم، كانت تبدو مرهقة ومتعبة ووجهها شاحب للغاية،

خرج من غرفتها وتركها ترتاح، معتقداً أن النوم سيفيدها، ذهب إلى المطبخ ليحضر لها كوباً من عصير الموز باللبن الذي تحبه، حاول تشغيل ماكينة خلط الفواكه معطلة، وبينما كان يحاول إصلاحها، عملت فجأة فقطعت إصبعه.

استيقظت راندا بعد أقل من ساعة، كانت ما زالت مرهقة وغير متزنة، تتحرك بالكاد وتمشي وهي تستند على الجدران. كان هشام يحاول إيقاف الدماء التي يذرفها إصبعه، وضع الضماد مسرعاً عندما وجدها على هذا الحال وذهب ليساعدها، أمسك يدها وساعدها في الجلوس على أقرب مقعد، اقترب منها وهو يحدق في وجهها الذي بدا عليه الشحوب، وكأن الدماء هربت من عروقها فجأة، عندما لاحظت مراقبته لها سألته متعجبة:

- لماذا تحملق في وجهي هكذا؟

- أنت متعبة فعلاً، ما رأيك في أن نذهب إلى المشفى؟

- لا داعي.. مريومان لم تمر كسرة خبز في حلقي.

قال لها مندهشاً:

- ماذا تقولين؟! إنها فترة طويلة جداً.. مهما كان مقدار

حزنك ضعف جسدك لن يفيدك ولن يمحيه.

ذهب إلى المطبخ وأخذ كأس العصير الذي صنعه لها وعاد

إليها وعلى وجهه ابتسامة، ثم قال:

- اشربي هذا العصير، ريثما أعد لك طعاماً خفيفاً.

أخذت منه كأس العصير، ولمحت جرح إصبعه فسألته:
- ماذا حدث لك.

- إنه جرح بسيط.. خلط الفواكة كان لا يعمل فحاولت إصلاحه، سأذهب لإعداد الطعام.. وتوجه إلى المطبخ.
قالت:

- العصير يكفي.. لست جائعة.
أجابها وهو يتجه إلى المطبخ دون أن يلتفت إليها:
- لا يجوز ذلك.

تركت من يدها العصير ونهضت من المقعد. وتوجهت إلى المطبخ بخطى بطيئة متعبة، ثم قالت له بخجل:
- رجاء.. لا تتعب نفسك.

كان بالفعل قد بدأ في تحضير ما سيستخدمه؛ شطائر جبن وبيض وبعض الخطار الطازج، استمرت في التحديق إليه وهو يقطع الخيار، نظر إليها وصمت لوهلة ثم قال:

- لماذا تنظرين إليّ هكذا.. أترين أنتِ أيضًا أن الرجال يكونون أكثر جاذبية وهم يطهون؟
سألته بخبث وكأنها تعرف الإجابة:
- ماذا تقصد بـ "أنتِ أيضًا"؟

شرد قليلًا وارتسمت على شفثيه ابتسامة صغيرة، وقد مرت موجة من الذكريات حملته بعيدًا، ثم قال:

- حنين كانت تقول دائماً.. "لو يعلم الرجال كم يكونون جذابين وهم يطهون؛ لما ترك رجل حبيبته تدخل المطبخ".
غضبت راندا كثيراً مما قاله هشام، لكنها حاولت إخفاء هذا الغضب، بالحديث عن شيء آخر، اقتربت منه ثم قالت:
- لم انتبه قط أنك من مستخدمي اليد اليسرى!

أنهت حنين طعامها وعلى وجهها نفس الابتسامة التي لم تفارق شفيتها كلما مد والدها يده لها ليطعمها، نظر إليها وتنعم في وجهها وهو صامت وعلى وفي قلبه سعادة غامرة معلنة على وجهه بابتسامة رقيقة حنونة، بادلتها تلك النظرات، ثم قالت:
- كنت على شفا نسيان هذا المذاق!
سألها مندهشاً:

- أي مذاق؟ أتقصدين الدجاج؟
نظرت إليه وصمتت لوهلة ثم قالت:
- ليس أي دجاج يا أبي.. أقصد هذا المذاق تحديداً.
نظر إليها وقد تأثر بشدة، ثم قال لها:

- تلك النظرة في عينيك، أشعر وكأنها تأتي من الماضي، كنت أظن أنني لن أراها إلا في خيالي، لقد كنتِ دوماً طفلة هادئة، حتى أننا أحياناً لا نشعر أننا وأمك أنك معنا في ذات الغرفة، لكن بعد تلك الحادثة المشؤومة تغيرت كثيراً وكأنك كبرت أعواماً

على عمرك، ضاعبت ابتسامتك المرحية ونظراتك الهادئة.. أنت لا تدركين كم أنا مدين للقدر الآن يا حبيبتي.

ابتسمت له وقبل أن يكتملا حديثهما جاء رنين هاتف الوالد ليقطعه.. كان شريف يستأذنه أن يوافق على زيارة بجاد لحنين، تردد الوالد في البداية لكن إصرار شريف وتأكيد له أن هذا الأمر إن لم يفدها لن يضرها جعله يوافق، لكنه طلب منه أن يتمهلاً قليلاً ليخبر حنين بما حدث في الفترة الماضية لكي لا تشعر بالارتباك والتوتر. أنهى المكالمة ونظر إلى حنين التي كانت تحديق في وجهه طول الوقت لتفهم ما يدور، وقبل أن يتكلم سألته:

- أكان هذا دكتور شريف؟

- نعم.

- أنا لا أفهم يا أبي، لم تكن علاقتكما جيدة على الإطلاق.. ماذا يجري؟

أمسك يدها ونظر داخل عينيها ثم قال:

- هناك أشياء كثيرة عرفتتها يا حنين، جعلتني أشعر بنفس الشعور الذي تسرب إلى داخلي عندما حملتك بين كفوفي لأول مرة. نظرت إليه وتعبيرات الدهشة لم تفارقها، ثم قالت:

- ماذا تقصد؟

- لقد قرأت أوراقك التي أعطيتها لدكتور شريف، هناك أشياء لم أكن اعلمها ولم تخبرني على بال قط. لماذا لم تخبرني يا

ابنتي بكل تلك المخاوف والمعاناة والكوابيس؟ لماذا لم تخبريني يوماً عن جدتك؟

قطبت حاجبيها وطأطأت رأسها لأسفل ثم قالت:

- حتى أنا يا أبي لم أكن أعلم بما يدور داخلي. عندما سألني دكتور شريف عن حياتي الماضية لم أجد ما قوله، لم أستطع البوح بشيء، الكلمات كانت تخونني بطريقة سافرة.

وضع يده على وجهها ورفع رأسها لأعلى ونظر إليها ثم قال بخبث:

- لكنها لم تخنك عندما تحدثت عن بجاد.

جحظت عيناها واحمر وجهها خجلاً ثم قالت:

- هل حكى لك عن بجاد؟

- لقد رأيت بجاد يا حنين.. جاء هنا وجلس بجوارك أكثر من ساعة.

نظرت إليه مشدوهة وقد ملأت الدموع عينيها، كما ملأت الغيرة قلبها لأنها لم تره ولم تشعر بوجوده كما شعر به الجميع. ظلت صامته ليظل اسم بجاد يدوي في أذنها، لم تشأ أن تسمع شيئاً آخر فما يمكن أن يكون أجمل من أنها لا زالت خطر على باله. طال الصمت فقطعه الوالد قائلاً:

- نحن نظن أننا نترك الأمور للصدفة والترتيب العشوائي، ولكننا دون أن نعلم نتركه للقدر.

ضغط على يدها ثم أردف قائلاً:

- الترك في حد ذاته من ترتيبات القدر، نحن نفسد الأشياء
يا ابنتي، أحياناً يتدخل القدر لينقذ الأشياء الجميلة في حياتنا،
وقد يتدخل بقسوة ليفعل ذلك، كما حدث معك.
قالت له متعجبة:

- لم أكن أعلم أن لديك كل هذا الإيمان يا أبي.

ابتسم وقال وهو يضع يده على صدره:

- يبدو أن الإيمان هنا دائماً يا ابنتي، تدركنا المعجزات لندركه
ولكي نعلم أن الله يحيط بنا دائماً.

- المعجزات؟!!!

- نعم.. لم ينته وقت المعجزات بعد، لكنها تبدو صغيرة
ومألوفة لدرجة أننا لا نكتشفها إلا بعد حين.

- ماذا تقصد يا أبي؟

- سأخبرك يا ابنتي.. لكن عديني أن تخبريني إن تذكرتي أي

شيء.

- أعدك..

حاولت راندا الاتصال بوالد حنين أكثر من مرة لتطمئن على
حالة حنين، كان بداخلها حالة من الارتباك والحيرة، فرغم أنها
قررت التخلي عن هشام أخيراً، ولم يعد يعنيها كثيراً تمسكه أو

تخليه عنها، كانت تريد بشدة أن تطمئن على حالتها، ربما أرادت أن تطمئن أنها لم تترك ورائها ضحية أخرى، أو كان ذلك نوع من الفضول. مشاعر متناقضة لم تستطع تمييزها أو تصنيفها، خرج هشام من المطبخ وهو يحمل لها الطعام الذي أعده لها، وجدها تمسك الهاتف بين يديها وشاردة تمامًا لدرجة إنها لم تنتبه لوجوده، ألقى نظرة على الهاتف دون أن تشعر ثم قال لها:

- اتركي هاتفك لتأكلي.

نظرت إليه ثم قالت بخبت:

- أحاول أن أحدث والد حنين لاطمئن عليها لكنه لا يجيب

تظاهر هشام بعدم الاكتراث وقال:

- حديثه في وقت لاحق.

تناولت راندا كسرة من الخبز ولاكتها ببطء ثم نظرت إلى

هشام وقالت:

- هشام.. أنت لم تخبرني قط بما قلته لحنين جعلها تفعل ما

فعلته في نفسها.

نظر إليها وهو يحاول إخفاء ارتبائه:

- قلت لها ما اتفقنا عليه..

نظرت إليه وقد بدا عليها عدم الاقتناع بما قاله هشام،

فأردف قائلاً:

- لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

- فكرت طويلاً في الأمر... عندما سألت حنين لماذا طلبت أن تنفصل عنك؛ أجابتنني قائلة؛ أنها عندما تراجعت عن المفاجأة التي أعددتها وجعلتني أدخل بيتك دون علمك، لأنها لا تتوقع ما سيكون رد فعلك تجاه هذا الأمر، كان بالنسبة لها سبباً كافياً للافتراق، واعتقد أنها كانت على حق، فالمرأة لا يمكنها الارتباط برجل لا يمكنها أن تفرق بين ما يسعده وما يغضبه، أو تتوقع ردة فعله حيال الأشياء أو الأحداث.

صمت هشام لوهلة وحاول أن يسيطر على غضبه ثم قال لها:
- ماذا تقصدين؟

- أقصد أنها كانت تأخذ فترة الانفصال تلك على محمل الجد، وبالتالي كان لديها استعداد كافٍ لتقبل الحياة بدون، إلا إذا.....

- ماذا؟

- كان كلامك قاسياً عليها جداً.

تجاهل كلامها وسألها:

- بما أنك محلة عاطفية من الطراز الأول كما أرى، لماذا في رأيك إذا كانت تريد أن ترتبط مرة أخرى وقبل عيد ميلادي بأيام؟

فكرت قليلاً وهي تأرجح بؤبؤ عينيها بين اليمين واليسار
ثم قالت:

- هذا الأمر تعلمه هي فقط، كما تعلم، هي لم تناقش هذا الموضوع معي قط.

أحاط الصمت جلستهم، ينظران لبعضهم البعض خلسة، ولم يجرؤ أيًا منهم اقتحام جدران هذا الصمت بالكلام، فجأة نهض هشام من مكانه وذهب إلى الشرفة يطالع الطريق، ظلت راندا في مكانها شاردة، تقطع شقفاً من الخبز ولا تأكلها، التفت إليها هشام ثم قال:

- يبدو أنك أصبحت بخير..

أخذ هاتفه وسلسلة مفاتيحه محاولاً التظاهر بأنه هادئ، ثم اتجه نحو باب الشقة وهو يقول:

- سأتصل بك لاحقاً لأطمئن عليك.

لم تبرح راندا مكانها ولم تنطق بكلمة ولا حتى وداعاً، بدأ الشك يراودها، والخوف يقتحمها متسارعاً، تذكرت ما قاله شريف في القلعة ونظراته المريبة. الأمور تسير في طريق مغاير لما خططت له، فكرت في كل الأمور التي حدثت دون ترتيب وكأن أمراً ما كان محتبئاً سيعلن عن نفسه قريباً، نهضت من مكانها بسرعة لاستكمال ترتيب حقائبها، ثم جاء رنين الهاتف ليوقفها، نظرت إلى الشاشة فوجدت والد حنين هو من يتصل أجابته على الفور:

- راندا.. أعتذر، رنين هاتفي كان صامتاً.

- لا يهم، شكراً أنك اتصلت بي.. أردت فقط الاطمئنان

على حنين لأني سأسافر قريباً، وانشغلت كثيراً، لم أستطع المرور عليها اليوم.

- تسافرين؟ إلى أين؟

- دبي.

- موفقة.. اطمئني يا ابنتي هي بخير، حالتها مستقرة لم تفق بعد.

- يا الله...

- لا تحزني.. ابنتي قوية وستحسن عما قريب.

- إن شاء الله.. سأطمئن عليها بين الحين والآخر..

أنهت المكالمة ووجدت أن الإسراع في الرحيل سيكون أفضل لها.

كان يتمنى بجاد أن يكون الطريق إلى المشفى أقصر من ذلك كان يتمنى أن تكون الحياة أبسط من كبسة زر، كبسة واحدة ويكون حيث يود، ورغم ذلك كان يريد أن تستمر هذه اللحظات والمسافة التي تقصر، هذا الشعور قد يعود أو لا يعود فكان عليه الاستمتاع به، بينما كان بجاد غارقاً في شروده ويعطي الزمان الأمان، ويعقد مع القدر صفقات واعدة كان شريف يراقبه خلسة، كان وجهه يطلق في الحياة طاقة إيجابية، لم يكثرث للخوف الذي أحاط بتلك الطاقة، فهو ينتمي لمن يرون الشمس نوراً وليست ناراً.

«أعتقد أن نسبة الأدرينالين في دمك ستسجل رقمًا قياسيًا في هذه اللحظة»، قال شريف هذه الجملة حين وضع يده على مقبض باب غرفة حنين، نظر إليه بجاد وقد ذاب خجلًا، لم يقل كلمة وانتظر بشغف أن يفتح الباب ويرى وجهها.

لم يطل شريف هذه اللحظة أكثر وفتح الباب، كأن حجابًا سقط، جدار عمره سنوات انهار في لحظة، دخل بجاد حاملاً بين يديه زهور بنفسجية ابتاعها دون أن يعرف أي رائحة تفضل، فقط يعلم أنه لونها المفضل، وجم الجميع من الحديث؛ نظرات حنين وبجاد أجبرت الجميع على الصمت، نظر شريف إلى باقة الزهور وابتسم ثم قال:

- الآن عرفت سر ابتسامتك يا حنين عندما دخلت عيادتي للمرة الأولى.. اللون البنفسجي يروقك.

ابتسم الوالد ثم مد يده ليحيي بجاد، ثم مد يده لشريف وجذبه للخارج قائلاً:
- سأخبرك بأمر هام..

تقدم بجاد خطوة فخطوة، وعينا حنين في منتصف عينيها وكأنهما لوحتان معلقتان على الجدران، جلس بجوارها وعانق يديها بكفيه ثم قال:

- كيف حالك يا حنين؟

لم تجب عليه للتو وظلت تنعم النظر في وجهه لثوان، ثم

أخذت نفس عميق وقالت:

- رؤيتك أمامي الآن جعلتني أشعر أنني أعيش في ذكرى
قديمة جدًا، وكأن قرن من الظلام قد مر، ومنحني طريقًا لفجر
يوم جديد، قضيت كل ذاك الوقت دون أن أنام براحة، من رحيل
إلى رحيل آخر، لكن أخيرًا لم تغدر بي أحلامي.

كان بجاد ينصت إليها وعيناه تلاحق نظراتها التي كانت
كسرب من الفرشات الملونة تدور بين قسماات وجهه بشوق شديد،
صمتت لوهلة ثم سألت العبارات على وجنتيها وأردفت قائلة:

- مر وقت طويل دون أن أتنفس، وها أنا أتنفس من
جديد.. هنا حيث امتزجت أنفاسي وأنفاسك في نفس المكان
ونفس الهواء.

عانقها بقوة وهو يحتجز دموعه بصعوبة شديدة، وكلما
حاولت حنين الإفلات منه، تمسك بها أكثر وهو يقول "فقط
أبقي هنا".

فجأة طرقت الممرضة الباب ودخلت وهي تحمل كوبين من
العصير وقالت إن الوالد هو من أرسلهما، وضعتهم على الطاولة
ونظرت إليهم وابتسمت بخجل، ثم خرجت. حمل بجاد كوبًا
منهما ووضعها بين يدي حنين، نظرت إليه ثم قالت:

- رغم أنني أرى كل هذا الحب في عينيك، إلا أن هناك شيئًا
غائبًا.. أين ذهبت بهجتك يا بجاد؟ من حاصر تيار الحياة فيك،

- الذي سرى في قلبي ذي يوم؟!
 جلس أمامها مرة أخرى ثم نظر إليها قائلاً:
 - لو كنت رأيتني قبل أن أراك، لكنتي عرفتني الإجابة.
 - لم أفهم!
 - لأنك كنتِ تلك البهجة، وعندما ذهبت.. ذهبت!
 أشاحت بوجهها بعيداً عن مرمى بصره خجلاً، فجذبها إلى
 عينيه مرة أخرى، ثم قال:
 - هذا ليس عتاباً يا حنين!
 - أنا مدينة لك يا بجاد. مدينة لك على الأقل بالتوضيح.
 - لا داعي يا حنين أخبرني شريف كل شيء.
 ابتسمت، ثم شردت قليلاً. فسألها:
 - ما كل هذا الشرود؟
 - كنت أتذكر ما قلته لدكتور شريف عنك.
 - ماذا تذكرتي إذا؟
 - تذكرت حلماً غريباً، كنت أراك فيه.
 - ما هو؟
 - كأننا في زمان آخر، نهرب من مكان ما، لا نعلم أين
 نذهب، يحيطنا الظلام والضباب، لا نرى سوى الأشجار الملتفة
 والغابات، لا نسمع سوى صهيل الخيل وهطهطة أقدامه، فقت
 من هذا الحلم بسرعة وكأنني سأجذبك معي إلى الواقع.

صمت بجاد وهو يحملق في وجهها ثم قال:
- لو كنتِ أخبرتني أننا نمتطي فرسًا، لقلت لكِ أنني كنت
في هذا الزمان الآخر؛ الأمير الذي خطف حبيبته وتسبب في
حرب طروادة، لكن..

قاطعته وهي تقول بحماس شديد:
- لا.. في أي زمان قريب أو بعيد لن تكون إلا قاضيًا...
هذه المهنة تليق بك في أي عصر.
صمت الاثنان لكن نظراتهما لم تصمت، ثم فجأة تحدث
حنين قائلة:

- أخبرني أبي أمورًا غريبة، هل كنت تتهم هشام بمحاولة
قتلي؟!

أطرق بجاد رأسه لأسفل ثم نظر إليها مرة أخرى قائلاً:
- وما زلت يا حنين.

- كيف ذلك أنا لا أذكر أنني رأيته.
- لكنه قال في التحقيقات أنكِ طلبت منه أن يأتيك.
قطبت حاجبيها وحاولت أن تتذكر، ثم قالت له:
- أنا لا أذكر ذلك.

أخذ نفسًا عميقًا وقال لها وقد بدا عليه الغيرة الشديدة، ثم
سألها:

- ماذا إذا عن التميمة التي وجدتها في بالوعة حوض الحمام،

ويبدو أنك صنعتها من أجله.

- نعم فعلت ذلك. لكنني كنت سأرسلها في عيد ميلاده.

قال وقد زاد غضبه وغيرته:

- حقاً؟!

شعرت حين أن كلامها قد أزعجه، اقتربت منه وأمسكت

يده ثم قالت:

- أنا وهشام انفصلنا، وتلك كانت رغبتني. لكنني ظلمته

كثيراً.. لأنني لم أستطع منحه الحب. لم أستطع أن أفهمه، أفكر في أشياء كثيرة وأتراجع عنها لأنني لا أتوقع ردود أفعاله، أدركت كل هذا، وفهمت أن تلك العلاقة لا يمكن أن تستمر بهذا الشكل، انفصلنا باحترام، فصنعت له تلك التهمة كمجاملة واعتذار لا أكثر.

شردت قليلاً، وبدأ ذهنها ينشط قليلاً، بعض الأشياء

التي حدثت في هذا اليوم كانت تظهر أمام عينيها تلمع كالبرق وتختفي، نظر إليها بجاد وسألها أكثر من مرة، "ماذا بك؟" لكنها لم تجد ما تقوله ما زلت أفكارها مشوشة، في تلك الأثناء كان الوالد يخبر شريف عن تلك المكالمات التي جرت بينه وبين راندا، شعر شريف بخطورة الأمر وأن سفر راندا يمكن أن يكون هروباً قد يدفن الحقيقة للأبد. أدرك أن أوان المواجهة قد حان وعليه الذهاب إليها والتحدث معها مباشرة بلا تهديد أو ألغاز.

انتظر بجاد أن يخرج من غرفة حنين وأخبره بالأمر، وافقه في رأيه خاصة أن التحريات التي طلبها من صديقه في لندن قد لا تسفر عن شيء يمكن الاعتماد عليه. خرج الاثنان من المشفى وتوجه شريف مباشرة إلى منزل راندا.

عندما فتحت راندا باب شقتها وأبصرت شريف أمامها وعلى وجهه ابتسامة جافة باردة قليلة شتوية شعرت بالخوف، أيقنت أن تلك الشكوك التي راودتها تجاه هشام لم تكن سدى، وأن هشام يخفي شيئاً تورط فيه وأن الشر الذي غزلته بيدها سيلتف حول عنقها، صافحته بأطراف أصابعها، وكأنه عراف سيقراً أفكارها من كف يدها، نظر إلى يدها التي جذبتها من يده بسرعة ملفتة ثم نظر إليها وصمت لوهلة ثم قال:

- كيف حالك؟

- بخير حمداً لله.

تلقت حوله ثم نظر إليها قائلاً:

- هل سنبقى هنا أمام الباب؟!

- بالطبع لا.. اعتذر منك.. تفضل بالدخول

دخل شريف بخطوات وثيدة، لكي لا يقتحم مكان خاص دون رغبتها، ثم التفت إليها في نظرة ضمنية يسأل بها عن المكان الذي يمكنه الجلوس فيه، أشارت إليه راندا إلى مقعد بجوار

الشرفة في غرفة المعيشة، جلس شريف على المقعد، بينما ظلت راندا واقفة لم تجلس وسألته:

- شاي أم قهوة أم تفضل مشروبًا باردًا؟

- أفضل ما تفضلين.

- لقد صنعت للتو شايًا.

- إذا شاي!

ذهبت إلى المطبخ وحضرت الشاي وطبق صغير من الحلويات، وهي تحاول أن تتمالك أعصابها، ثم خرجت إليه ووضعت أمامه فنجان الشاي وطبق الحلويات، وحملت فنجانها وجلست في المقعد المقابل له، ارتشف شريف من فنجانه رشفة صغيرة ووضعه مرة أخرى، ثم نظر إليها قائلاً:

- لن أطيل عليك.. وسوف أسألك بطريقة مباشرة.

قالت وهي تحاول التظاهر بالشبوت:

- أتمنى ذلك.

- ماذا بينك وبين هشام يا راندا؟

قطبت حاجبيها ثم وضعت فنجانها بجوارها وقالت بهدوء:

- لم أفهم. ماذا تقصد؟

- لقد رأيتهما أمام المشفى تتجادلان.

نهضت من مقعدها وقد أربكها سؤاله المباشر ذاك فأجابته

بتلثم:

- لا شيء رأيت بالصدفة، وعرفت أنه يريد أن يرى حين.
فطلبت منه ألا يفعل، ربما يكون الوقت غير مناسب.
هم واقفًا وتقدم نحوها خطوتين ثم قال بنبرة تخللتها بعض الغلظة:

- وتلك الصورة التي تجمع هشام بشخص آخر، والتي احتفظت بها على حاسوبك.

نظرت إليه بغضب ثم قالت بعصبية شديدة:

- ألا يفترض أيها الطبيب أن تحافظ على أسرار مرضاك؟!
من باب أولى ألا تتجسس على من هم ليسوا مرضاك
- صحيح. لكن إن كان الأمر يتعلق بجريمة قتل، وأن
الشخص الذي كنت تتجادلين معه هو المتهم - والذي يبدو
أنك تسترين عليه - وتخفين صورة قد تكون دليل هام في إدانته.
أعتقد أن الأمر يتجاوز الأعراف المهنية.

اربكتها كل كلمة كان يطلقها لسان شريف، وبدأت قواها
تخور، وخوفها يزداد، خاصة وأنها قد بدأت بالفعل في الشك
بهشام، كانت الأفكار تتزاحم في رأسها، وتشوش على عقلها،
صمتها ذاك جعل شريف يستمر في إرهابها، لم ينتظر وأردف قائلاً:
- راندا، أنت أخفيتي أمورًا هامة أثناء التحقيق وهذا
يضعك في موقف صعب إذا تم فتح التحقيقات مرة أخرى.
ويبدو أن بيجاد..

نظر إليها بخبث ثم قال:

- أظن أنك تعريفين جيداً من هو؛ قد توصل إلى بعض الأمور المهمة التي تدين هشام، خاصة بعد أن استيقظت حين من غيبوبتها.

توترت راندا أكثر، فما قاله شريف قد يجعلها تتورط معه في محاولة قتل حين. عادت راندا مترنحة إلى مقعدها والقت نفسها عليه ثم نظرت إلى شريف ولم تتكلم، اقترب منها شريف ونظر داخل عينيها ثم قال بنبرة هادئة ودودة:

- أنا لا أريد الزج بك في هذا يا راندا، كل ما نريده هو أن نعرف ما هو السر الذي يخفيه هشام، وأعدك إن ساعدتنا في ذلك ستكونين خارج هذا الأمر تماماً.

نظرت إليه مستعطفة وقد تخلت تماماً عن المراوغة، ثم قالت:

- تعدني بذلك.

- أعدك.

- الشخص الذي رأيته في الصورة مع هشام هو أخيه "أكرم".

بينما كان بجاد يجلس في مقهى بالقرب من بيت راندا ينتظر شريف ليخبره بما جرى بينه وبينها، دق جرس هاتفه، أسرع بجاد في الرد عندما وجد أن الرقم الذي يتصل به من لندن.

- مرحبًا عمر.

- مرحبًا بجاد.

- أخبرني هل وصلت إلى شيء جديد؟

- نعم، عرفت أن الشخص الذي أرسلت لي صورته "أكرم محارب" كان يعمل مهندسًا في إحدى شركات الاتصالات بلندن، أصيب بالعمى بسبب حادث سير، السيارة التي صدمته مسجلة باسم رجل أعمال مصري اسمه "إبراهيم يعقوب المصري"، السائق أقر بأنه ارتكب الحادث، وأثبتت التحريات أن الحادث وقع عن طريق الخطأ، حكم على السائق بخمس سنوات، بعد شهر من الحادث انتحر "أكرم"، أما بالنسبة للاسم الآخر "هشام محارب"، المسجل أنه دخل لندن بعد حادث التصادم بثلاثة أيام. كان هشام ينصت لتلك المعلومات بانتباه شديد، وعندما أنهى المتحدث كلامه سأله بجاد:

- هل أكرم وهشام إخوة.

- بالطبع يا بجاد، ظننتك تعلم، فلم أذكر ذلك.

أنهى بجاد المكالمة وغرق في الأفكار التي ملأت رأسه، وبدأ يربط الأحداث ببعضها البعض، لكن شيء واحد لم يجد له إجابة؛ "إن كانت الحادثة عن طريق الخطأ وتسبب فيها السائق، لماذا سعى للانتقام من حين؟!".

«حنين هي من كانت تقود السيارة»، هكذا قالت راندا، وكانت تظن أن حنين لم تخبر أحد بهذا السر، لكن شريف باغتها بأنه يعلم هذا الأمر وأن حنين أخبرته بنفسها، قالت له مندهشة: - لم تخبرني حنين قط أن أحداً غيري يعلم بالأمر.

- لأن أحاديث حنين معي كانت بمثابة مصارحة مع النفس، أخبريني الآن كيف استطعت الكشف عن هوية أكرم؟ - عندما رأيت الصورة، وتاريخها ومكانها أدركت أن هناك أمر ما يخفيه هشام، لأنه لم يقل قط أنه زار لندن، رغم أن أحاديث راندا عنها لم تنقطع، تعجبت جداً لهذا الأمر، وهذا ما جعلني أكمل البحث بين أغراضه.

- هل وجدت شيئاً آخر؟

- نعم، جواز سفر أكرم.. وبطريقة وأخرى تحايلت عليه وأفهمته أنني أعرف ما يخفيه، فاستطعت استدراجه وحكى لي كل شيء..

- وماذا أخبرك؟ هل كان يريد الانتقام من حنين؟

أجابته وعلى وجهها مسحة من الحزن:

- في البداية، لكنه أحبها فيما بعد..

- وماذا بعد؟

- الذي جاء بعد كان عند حنين، وكأنها راجعت نفسها

وأعادت التفكير، تغيرت بشكل كبير معه، ربما كانت قارنت

بين هشام وبجاد، أو لكي أصدق القول قارنت بين إحساسها في العلاقتين، أدركت أن هشام لم يكن إلا حبيباً بحكم الوحدة. ظن هشام أنني أخبرتها بما عرفته، فأجبرتني اتهاماته لي أن أبوح له بكل شيء عن بيجاد.

نظر شريف إليها وظل صامتاً. وكأنه يرى روح بائسة شريرة وأنانية تتغذى على جرح الناس وآلام الآخرين. فقالت بنبرة حادة: - لا تنظر لي هكذا.. لقد كانت الغيرة تغرس أظافرها في عروقي، تصفي دمي، تهزم كرامتي وتقوي جحودي. أنا أحق به منها.. أنا من عشقته بلا حساب بلا مقارنات أو هروب من الماضي. أردته أن يكون معي، بجواري، لم يكن يهمني حتى لو بادلني الحب تحت التهديد. حين لم ترى إلا بجاد، لم تعشق غيره. هم واقفاً وباغتها قائلاً:

- عقدت إذاً معه اتفاق لانتقام جديد، وأردت قتلها معه. جحظت عيناها وابتعدت خطوتان للوراء ثم قالت بكلمات متلعثمة:

- لا لم أفعل. وهشام لم يفعل بالتأكيد. ربما ثار عليها. أو.. قال لها كلام جرحها به وجعلها تنتحر... لكنه لم يفعل... صدقني قاطعها قائلاً:

- أخبريني إذاً عن هذا اليوم. صمتت لوهلة لتهدأ قليلاً ثم قالت:

- حاولت حنين كثيراً أن تستمر في علاقتها معه، لكنها لم تستطع وانفصلت عنه. وبعد قطيعة أكثر من شهر، أخبرني أنها تحدثت معه وطلبت أن تراه. كان يظن أنها اشتاقت إليه وربما تعود العلاقة بينهما كما كانت. ثرت وغضبت وعندما هددته بأنني سأخبرها بسرّه، لم يهتم. جعلته يسمع بأذنيه حديثها معي عنه وأنها لا ترغب في أن تعود إليه، فقط تريد التحدث معه لتعتذر له عن سوء معاملتها له في الفترة الأخيرة وهروبها منه، وخدمتني حنين دون أن تشعر عندما تحدثت عن بجاد وشعورها تجاهه الذي لم ينته بعد. جن جنونه وثار، لم أره في تلك الحالة قط، يهشم كل شيء يقع تحت يده، كان كالإعصار يطيح بكل شيء يعترض طريقه، أخبرته أنه لن يهدأ إلا إذا انتقم منها، وأن خير وسيلة للانتقام هو أن يخبرها من يكون، ويطلعها على المصير الذي لاقاه أخيه بسببها.

نظرت إليه وقد ملأ عينيها الخجل والندم ثم قالت:

- ولكي أضمن ابعاده عنها وقطع دابر علاقتها للأبد، فلا يبقى لها أذنان فتنبت منها من جديد، أرسلت لوالدها رسالة من خط آخر، وأخبرته أن حنين لم تقطع علاقتها بهشام، وأنها تتنوي الزواج منه، لأثير غضبه.

ما سمعه من راندا كان ينازل شرور الحكايات التي رواها المؤرخون عن القاهرة، وما حكاها الأولون في الأساطير، اكتشف

أن هناك مرضى حولنا وأقرب لنا من أنفسنا لكننا لا نراهم، أو ربما يعمينا حبنا لهم وثقتنا فيهم ليس عن رؤية عيوبهم فحسب، بل عن رؤية مرضهم أيضًا، رملها بنظرات أكثر قسوة من الاحتقار ثم قال لها:

- أنتِ حقًا مثيرة للشفقة.

اتجه نحو الباب، ثم التفت إليها مرة أخرى وسألها:

- سؤال أخير؛ هل يجيد هشام استخدام يده اليسرى؟

تعجبت جدًا من سؤاله وسألته:

- كيف عرفت ذلك؟

لم يجب وتركها وخرج. عندما وصل شريف إلى المكان الذي ينتظره فيه بجاد؛ وجده شاردًا ممسكًا بقلم تحته ورقة كتب فيها بعض الكلمات والرموز، لم ينتبه بجاد لوجوده إلا عندما جلس على المقعد المقابل له، نظر إليه وكأن ملامح وجهه قد تجمدت لا تعطي أي تعبيرات، صمت شريف لوهلة بعد أن أراح ظهره على المقعد ثم قال:

- فاجأتني كثيرًا.

مد بجاد يده إليه بالورقة التي كتب فيها المعلومات التي

أخبره بها صديقه ثم قال:

- حدثني عمر.

نظر شريف في الورقة ثم قال:

- إذا ما أخبرتني به راندا باتت أخبارًا قديمة.
قرأ ما كُتب في الورقة ثم نظر إليه، وقال وهو يعيدها إليه:
- إلا شيء واحد.
- ما هو؟

- هشام يجيد استخدام يده اليسرى.
قطب بجاد حاجبيه وصمت لثوان وظل يسترجع ما قاله
شريف في رأسه مرارًا، ثم أشاح بوجهه بعيدًا، لم ينتظر شريف
من بجاد أي تعليق وأردف قائلاً:
- فهمت الآن كم كان مؤلماً شعورك بالعجز، أمر مؤسف أن
نملك في أيدينا كل هذه المعلومات ولا نملك دليلًا واحدًا، حتى
إن تذكرت حنين ما حدث، التشكيك في كلامها أمر ميسور.
نظر إليه بجاد وقد برقت عيناه ثم قال:
- لن ننتظر.. سنخلق الدليل.
- كيف ذلك؟!
لملم بجاد أغراضه ثم قال:
- سأخبرك.. هيا بنا.

رتبت حنين أغراضها وتأكدت أنها لم تنس شيئًا، كان
الظلام قد حل. القمر يتوارى خلف غيوم رمادية كثيفة أحاطت
به، كلما مرت كثف منها لحقت بها الأخرى. اشتعلت الأضواء

وبرقت القلعة في قلب الجبل، كجوهرة في منتصف تاج سلطاني، جلست حنين تراقب المشهد من شباك غرفتها تنتظر أن يوافيها والدها وبجاء، الضعف الذي واجهته في الأيام الماضية أعطاه القوة، والألم أعطاه الصبر، والخوف أعطاه الفضول، والوحدة أعطتها الحكمة، والحكمة أعطتها الإيمان الذي أرشدها لقبلة روحها، للحب الذي بث فيها الحياة والثقة ومنحها الشجاعة لتصنع مصيرها بيدها، دخل بجاد وأغلق الباب وراءه وانتظرها تقبل عليه، لكنها ظلت في مكانها، أرادت أن يأتيها ويمسك بيدها ليعطها مزيداً من الثقة والشجاعة، تحرك إليها وانحنى على رأسها ووضع قبلة وهو يشتم رائحتها، بينما أغمضت حنين عينيها وارتسمت على وجهها ابتسامة دافئة، ثم نظرت في عينيه وقالت:

- هل أخبرتك من قبل أنني أرى في عينيك بوابة الزمن؟

- ولأي عصر إذاً تحملك؟

- لعصرك أنت، لأغوارك. لم أرى قط عينين تخبر عما وراءهم مثل عينيك.

- حنين.. أنت فقط من ترين ذلك.. انت فقط تملكين جواز

العبور من تلك البوابة. نظر في وجهها وأطال النظر، ثم التفت نحو الباب ثم قال لها:

- يجب أن نخرج الآن والدك ينتظرنا.

- هيا إذاً.

تقدما خطوتان ثم أوقفها مرة أخرى قائلاً:

- أثنّين بي؟

- فقط احذف حرف "الألف" ولهجة الاستفهام تلك،

ستكون أدق.

ابتسم ثم قال:

- ما طلبته ليس هيناً

- إيمانك به يعطني الثقة، وتلك الثقة تمنحني الشجاعة لمنتهاها.

أمسك بيدها وخرجاً من الغرفة، كان الوالد ينتظرهم في

استقبال المشفى، خرج الجميع وركبوا سيارة بجاد، وذهبوا.

عندما دلفت حنين بيتها، شعرت بخوف شديد، كانت

تشعر أن حجر ثقيل يطبق على صدرها ويحتجز أنفاسها. تتجول

بعينها في أرجاء البيت وكأنها تشاهده للمرة الأولى، كانت تتمنى

أن تركض بسرعة لذرّاعي بجاد ليحيطها بهما. لم يعد في هذا العالم

مكان آمن سواه، هذا هو الدواء الذي أهملته وظنت أنها ستكون

بخير بدونه إن وجدت البديل، فجأة دق جرس الباب، فزعت

بشدة وكأنه قرعة طبول كنذير حرب. تحركت في خطى وئيدة

مرتعة تتقدم نحو الباب بحرص، مدت يدها لمقبض الباب

وقبضتها تنبسط تارة وتنقبض تارة أخرى، ثم وضعت يدها على

المقبض وأخذت نفساً عميقاً وفتحت الباب.

عندما أبصرت وجه هشام أمامها تعالت نبضات قلبها، وهرولت أنفاسها شهيقاً وزفيراً، اقترب منها خطوة فابتعدت عنه خطوتين للوراء، لكنه استمر في التقدم وهو يحمل في وجهها بشوق، وغضب، وحب، وحنق، أغلق الباب خلفه، وحين ما زالت تبتعد للخلف، نظرت إلى قدميه وكادت تسأله « أين حذاؤك؟ » كما فعلت ليلة الحادثة، لكنها انتبهت هذه المرة أنه يرتدي حذاءه، ظلت تتراجع للخلف ومازالت مشاهد تلك الليلة تبرز أمام عينيها وهو يردد نفس الكلام الذي قاله «ستتخلين عني؟»، «انا أحبك، وأنتِ تغدرين بي». التفتت وراءها لتتفادى الوسادة الملقاة على الأرض التي تعثرت بها ليلة الحادثة وأسقطتها مغشياً عليها، وقبل أن يتقدم خطوة أخرى أشهرت مسدساً في وجهه وابتعدت خطوات للوراء وحذرت من أن يقترب منها أكثر، تجمد هشام أمامها وهو ينظر إلى السلاح الذي تمسكت به بقوة، تلاًلأت في عينيه الدموع وهو يقول:

- أتشهرين السلاح في وجهي يا حنين؟

- أنا أشهرته فقط يا هشام لم أوذيك كما فعلت أنت.

سقطت دمعة من عينه بعد أن اكتسح الضعف قسماً

وجهه وقال:

- لأنني أحببتك، لم أتقبل قط أن تكونين لغيري حتى لو كان

الأمر خيالاً.

ابتسم ساخرًا من نفسه ثم قال:

- أتصدقين أنني لم أستطع الانتقام منك حين كرهتك،
لم يمنحني الكره القوة لأفعل، أشفقت عليك وشعرت أنك
ضحية كما كان أخي، لكنني استطعت أن أفعل عندما أحبيتك،
أمر غريب.

قالت وهي تحاول أن تخفي ندمها وحزنها بتعبيرات قوة ملفقة:
- لم أقصد أن أؤذيه.

جلس على الأرض وأراح ظهره على الجدار والدموع تنهمر
من عينيه بلا استدعاء:

- أذيناه معًا.. أنت سرقتي منه نور عينيه، وأنا أهملته ودفعته
لقتل نفسه، لأنني لم أهتم به، لم يجد المسكين شيئًا يعيش من أجله،
فقد بصره، فقد عمله الذي يحبه، وتخلت عنه حبيبته. ظل المسكين
ينتظر شهورًا طويلًا قرارًا منصفًا من شركة التأمين لتعويضه،
لكنه لم يحصل إلا على فتات. لم يعد العلاج بنفع ولا العمليات،
كنت أظن أنه يحتاج عملي أكثر من اهتمامي لجلب المزيد من المال.
نظر إليها بحقد شديد ثم قال:

- أردت تدمير حياتك، أنت ووالدك، لكنني وجدت نفسي
أساعدك، أدركت أنك مريضة تستحقين الشفقة والعلاج.
- أنت أيضًا مريض يا هشام.

ابتسم لها وتلاشت عن وجهه تعبيرات الحزن والندم وأحل محلها المكر والخبث، وقال:

- إذا نحن نستحق بعضنا البعض.

هم واقفًا ثم أردف قائلاً:

- وذاك بجاد الذي يظن أنه سيحكم مني، لن يفعل.

بدأ يقترب منها رويدًا ثم مد يده ليلمسها فابتعدت عنه

وأشهرت السلاح مرة أخرى قائلة:

- ابتعد عني.. لا تقترب.

فجأة اقتحم بجاد وشريف البيت وعلا صوت بجاد قائلاً:

- ابتعد عنها يا هشام.

نظر إليه هشام وضحك ساخرًا:

- هل ستقول الآن "سلم نفسك لكي تخف عنك العقوبة،

أم ستؤجلها قليلًا؟!"

نظر بجاد لمظهره وحالته المزرية، ثم نظر إلى زجاجة الماء

التي يحمله، ونظر إلى هشام مرة أخرى، والقى له زجاجة المياه،

التقطها هشام بيده اليسرى وهو ينظر بخبث لبجاد، تجرع منها

رشفة ثم قال:

- حيرك كثيرًا هذا الأمر اليس كذلك؟ سقطة الشاطر بألف

سقطة، لكن ما يعزيني أن من كشفها رجل ذكي. اعترف بذلك.

اقترب منه شريف وقال بنبرة هادئة:

- هشام.. لا تضخم خسائر ك أكثر.. مؤكد المحكمة ستنظر لمصيبتك وسيكون حكمها عادلاً.

- لا يوجد عدل في هذه الدنيا يا دكتور.. خسارتي أكبر من أن أضخمها.

بسط شريف ذراعيه بمحاذاة جسده وقال متعجباً:

- لم أشك لحظة في أنك مريض يا هشام إلى هذا الحد.

ابتسم هشام بسخرية ثم قال:

- واأسفاه. بيننا شخص آخر سقطته بألف!

نظر هشام لحنين ثم نظر إلى بجاد وقال له:

- لا تظن أنني سأتركك تضع في يدي الأغلال وتأخذها

مني... لأنك ستدهس جسدي أولاً قبل أن تأخذها.

ركض مسرعاً تجاه الشرفة وفي لحظة قفز، أطلقت حنين

صرخة أنهكت قواها وسقطت مغشياً عليها.

قبل ثلاثة أيام

أدرك بجاد أن النيل من هشام لن يحدث إلا بالحيلة،

فكان عليه أن يرتب كل شيء بحنكة. طلب من والد حنين أن

ينحبر راندا أن حنين استردت وعيها، لتخبر هشام بذلك ويبدأ

التصرف بعشوائية، الخطوة التالية هي أن يبرم عقداً مع شركة

توريد كاميرات مراقبة، وتوزيعها بدقة لتغطي أرجاء الشقة،

كان على يقين أن هشام سيحاول التحرش بحنين، سيحاول التلصص على أخبارها، لذلك أكد على الجميع في المشفى أن تبقى حالة حنين طبي الكتمان ليشير فضوله أكثر ويجعله يتصرف دون حرص، اقحام حنين في تلك الخطة لم يكن هيناً، كان يسرد خطوات الفخ الذي سيوقع هشام في أحبولته وعيناه على حنين وتعبيرات الخوف الذي لم يفارق وجهها، بعد أن أنهى كلامه وتركهم الوالد لينفذ الاتفاق، جلس بيجاد بقربها وأمسك يدها ثم قال:

- أعلم أن ما سنفعله ليس هيناً، لكننا لا نملك إلا إياه
نظرت إليه حنين ثم قالت:

- قضيت حياتي وأنا لا أعلم أن الله يحيط بنا دائماً، لا يظلمنا ولا يتركنا ابداً، لكنه يتدخل في الوقت الذي يراه مناسباً، ربما يحدث هذا مع الجميع لكنهم لا يمتلكون الحظ الذي أملكه.
- لم أكن أعلم أنك تمتلكين كل هذا الإيمان.
نظرت إليه ثم ابتسمت قائلة:

- تلك الكلمات رددتها لوالدي اليوم، الم أقل لك أنه يحيط بنا دون أن ندرك.

مدت يدها واقتلعت الكاميرا التي وضعها بجاد في الصورة التي تعتلي سريرها ثم قالت وهي تنظر إليه بخبث:
- هناك أشياء أخرى تحيط بنا ولا ندركها.

نظر إليها بخجل:

- اعتذر منك يا حنين، أردت أن اتمتع ببعض الطمأنينة.
- أعلم لا داعٍ لذكر ذلك، لم انزعج. عندما رأيته لم تزايد
على الأمان الذي أشعر به بوجودك، لكنها أشعرتني بالراحة
لأنها تمنحك بعض الطمأنينة كما قلت.

أحاطها بزراعيه ووضعت رأسها على كتفه وأغمضت
عينيه. ترنح بها يمينا ويسارًا ببطء، وهو يربت على كتفها كأنها
طفل صغير يخلده للنوم، نظر في وجهها وسألها مبتسمًا:
- أخبريني الآن كيف اكتشفت وجودها.

ضحكت ثم قالت:

- عندما يمر الوقت بالكاد، وتملك منه الكثير، يصبح
التحديق في السقف والجدران تسلية الوحيدة.

أراح رأسها على كتفه مرة أخرى ثم قال:

- أنت ذكية يا حنين، وذكاؤك يمنعك من قول إنك كذلك.
صمتت لوهلة ثم قالت:

- أتمنى أن ذكائي هذا يمنحني القوة للتصرف بحنكة.

- ستفعلين يا حبيبتي.

تأكد بيجاد من ظنه عندما شاهد هشام يحوم حول المشفى
أكثر من مرة، لكنه كان أحرص من ارتكاب حماقات لن تظفر
أبدًا، وبالتالي جاء دور الخطة البديلة، أخبره الوالد أن أعمال

تركيب الكاميرات في بيت حنين قد تمت وأنه تأكد من أنها تعمل، وطمأنه باسل وشريف على وضع حنين الصحي ويمكنها الخروج في أي وقت. بعد أن تأكد أن بجاد ينتظر خارج المشفى كاليومين السابقين، طلب من شريف أن يأتي وينتظر بعيداً ليلحق بهشام ولا يسمح له أن يفارق عينيه.

كانت حنين مشتاقة لجولة ليلية في القاهرة. ظلام الليل مخيفاً أحياناً يكون منافق يواري سوءات الناس، وأحياناً يكون رقيق يواري سوءات قد تؤذيهم، كل بحسب تجربته وحالته. الأمر كان مختلف بالنسبة لحنين؛ فلم يكن الليل مخيف البتة، كان ملهم ورقيق، يحمل نسيمات تلامس وجهها كملمس مخملي، تداعب عينيها الأنوار التي عكستها مياه النيل الكريستالية، فتتلاشى عتمة لونه وتصير لوحة مبهجة ابدعتها عفوية الألوان. حتى العشوائية في ليل القاهرة لها معان، لها عنوان. فقط الاستغراق في تلك العشوائية والانعجان في تفاصيل تلك المدينة هو ما يجعلها جميلة وبراقة.

عندما وصلوا الفندق الذي يقيم فيه الوالد، ترجل عن السيارة، وتركهم يرحلان معاً.

لم تستقر الطمأنينة في قلب بجاد، رغم أن خطته كانت تسير كما وضعها، فبينما كانت حنين منشغلة بمشاهدة القاهرة تريد أن تشبع عينيها برؤيتها، وكأنها تخشى ألا تراها مرة أخرى، أخرج

بجاء من درج السيارة وأعطاه إياه قائلاً:

- أعلم أنك لن تحتاجينه، لكن يجب أن يكون معك.

انزعجت حنين من رؤية السلاح ونظرت إلى بجاء وقالت

دون أن تلمس السلاح بيدها:

- انا لم أحمل سلاحاً قط في حياتي، أنت تخيفني!

- لا تخافي يا حنين، سيشعري السلاح بأنك أكثر أماناً.

نظرت إليه والخوف يكسي ملامح وجهها ويدها مرتبكة،

تمدها إلى السلاح مرتعشة وكأن الرصاصة ستنتقل من فوهته

من تلقاء نفسها. عندما همت بوضعه في حقيبتها، علا صوت

بجاء وهو يؤكد عليها أن تضعه في جيبها، لم ترتح حنين لوجود

السلاح معها وجعلها تشعر بالخوف أكثر من الأمان، لكنها

فعلت لتشعر بجاء بالراحة، وهي بينها وبين نفسها على يقين تام

أنها لن تمسه بيدها مهما حدث. توقف بجاء أمام بيت حنين،

ترجلا الاثنان، أخرج بجاء حقيبة حنين من السيارة وأعطاهما

للحارس، وقفا حنين وبجاء أمام البيت يتبادلان النظرات،

وكلما كشفت عيناها عن نية الرحيل، كان يكفي أن ينظر لها نظرة

تألفها عيناها جيداً وكأنها ولدت بشفرتها، فجأة جاء رنين هاتف

بجاء لينهي فصل النظرات ويبدأ فصل آخر. أجاب بجاء على

الهاتف، انطلق صوت شريف قائلاً:

- كما توقعت يا بجاء، هشام يلاحقكم منذ خروجكم من

المشفى، وما زال هنا يراقبكم، ويبدو عليه الغيظ والغضب.
- رائع! ليشاهد هذا أيضًا.

لحظة واحدة كانت كافية ليجذب حنين من خصرها وتنام
شفتها بين شفتيه. قبله عمرها سنوات من الاشتياق، ربطت
الماضي بالحاضر، وربما بالمستقبل. ابعدت حنين شفتيها ونظرت
في عينيه، صمت لوهلة ثم قال:

- هل أزعجتك؟

قالت وهي ما زالت تنظر في عينيه:

- كنت أتمنى أن أسمع هذا السؤال مرات ومرات.. منذ
وقت طويل يا بجاد.

علقت ذراعيها على كتفيه واقتربت منه أكثر ثم سلمت
شفتيها لشفته مرة أخرى. قبله الاشتياق تشبه سلاحًا لم ينتزع
منه الأمان، مهما أطلقت منه لن يصيب، لكن ما بعد الاشتياق،
بطلقة واحدة تستنفر المشاعر وتمتزع نيرانها ولا يستطيع المرء أن
يحدد بأي نار يحترق، يكتفي بممارسة فعل الاحتراق.

تركته حنين لتصعد إلى بيتها، كانت تلفت إليه بين حين وآخر
وقف بجاد يتأملها، إلى أن اختفت عن مدى نظره، أخذ سيارته
وانطلق مسرعًا، لم يبتعد عن البيت وانتظر أن يحدثه شريف. بعد
دقائق قليلة حدثه شريف، فعاد مرة أخرى ليجد شريف ينتظره
في سيارته أمام بيت حنين، ترجل بجاد عن سيارته وجلس

بجوار شريف في سيارته، نظر إليه شريف ثم قال بخبث:
- هل ما حدث منذ قليل كان ضمن الخطة لإثارة غضب هشام؟

نظر إليه وهو يحاول أن يخفي نشوته وابتسامته التي اجتاحت
قسمات وجهه كلها قبل أن تعلنها شفتاه، ثم قال:
- إن كانت كذلك كما قلت، فمؤكد أنها فعلت، وإن كنت
تقصد شيئاً آخر لم أتأكد بعد!
سكتا لوهلة ثم أردف بجاد قائلاً:
- لنبدأ الآن.

فتحت حنين عينيها وأغمضتها مرة أخرى، وصوت صفير
قوي يخترق إذنيها، ثم بدأ يخفت شيئاً فشيئاً ثم جاء صوت
والدها هامساً في أذنها «حنين هل تسمعيني؟» أخذت نفساً
عميقاً وفتحت عينيها. أبصرت الجميع يقفون أمامها مشدوهين.
قلقين. نظرت إليهم واحداً تلو الآخر ثم جذبت نصفها العلوي
لأعلى قليلاً وقالت:

- كم من الوقت مر وانا فاقدة للوعي هذه المرة؟
أجابها والدها:

- سويعات قليلة يا حنين.

- كم تشبه هذه الليلة تلك الليلة، يبدو أن ذاكرتي رفضت

بجوار شريف في سيارته، نظر إليه شريف ثم قال بخبث:
- هل ما حدث منذ قليل كان ضمن الخطة لإثارة غضب هشام؟

نظر إليه وهو يحاول أن يخفي نشوته وابتسامته التي اجتاحت
قسمات وجهه كلها قبل أن تعلنها شفتاه، ثم قال:
- إن كانت كذلك كما قلت، فمؤكد أنها فعلت، وإن كنت
تقصد شيئاً آخر لم اتأكد بعد!
سكتا لوهلة ثم أردف بجاد قائلاً:
- لنبدأ الآن.

فتحت حنين عينيها وأغمضتها مرة أخرى، وصوت صفير
قوي يخترق إذنيها، ثم بدأ يخفت شيئاً فشيئاً ثم جاء صوت
والدها هامساً في أذنها «حنين هل تسمعين؟» أخذت نفساً
عميقاً وفتحت عينيها. أبصرت الجميع يقفون أمامها مشدوهين.
قلقين. نظرت إليهم واحداً تلو الآخر ثم جذبت نصفها العلوي
لأعلى قليلاً وقالت:

- كم من الوقت مر وانا فاقدة للوعي هذه المرة؟
أجابها والدها:

- سويعات قليلة يا حنين.

- كم تشبه هذه الليلة تلك الليلة، يبدو أن ذاكرتي رفضت

نسيانها فعاشتها مرة أخرى.

جلس والدها بجوارها يبطاء وربت على كتفها قائلاً:

- لقد مرت يا ابنتي.. كل شيء انتهى.

نظرت حنين إلى بجاد ثم قالت:

- هل أثرت إعجابك يا سيادة النائب، لم أفسد خطتك؟

- أنت قوية يا حنين، لولاك لفسدت فعلاً. طلبنا من

المحققين تأجيل الحديث معك إلى أن تتعافي، لكنهم يؤكد

سيطلبون شهادتك فيما حدث في الليلتين. لا تقلقي.

صمتت لوهلة، ثم نظرت إلى شريف وارتسمت على شفيتها

ابتسامة احترام وشكر وامتنان ثم قالت:

- ما زلت كلماتي ترتبك في حضورك يا دكتور، كل كلمات

الشكر تخون لساني.

- الشكر الذي أريده هو أن أراك بخير، وأن تبدأي حياتك

من جديد.

- سأبدأ من حيث توقفت..

ما بعد الحادثة

كانت حنين تجلس ذات صباح خريفي في حديقة المصححة ترتدي فستان بنفسجي، يحكم السيطرة على خصرها النحيل، يلامس أطرافه الحشائش الخضراء التي تحظى باعتناء جعل خضرتها محببه للناظرين، وفي الأطراف امتدت شجيرات بيضاء وذهبية محنية رؤوسها تملأ الهواء برائحة ذكية. نسيمات باردة كانت تمر بين الحين والآخر، فأحاطت ذراعيها بشال وردي، وتركت شعرها منسدلاً لم تقيدته، ولم تحاول السيطرة على الخصلات التي يداعبها الهواء فتترنح بلا مهادنة، ولا استدعاء من أصابعها التي انشغلت بالكتابة.

بعد أيام قليلة من دخولها المصححة تذكرت حديث والدها عندما أخبرها أن الأوراق التي كتبتها، كانت سبيلاً له لمعرفة. أدركت أن الشاعر بداخل الإنسان كالحصان الجامح، يحتاج للترويض لكي لا يؤذي نفسه، فقررت أن تكتب كل ما مرت به، لتعرف مشاعرهما عن قرب وتسيطر عليها فيما بعد. اليوم كانت حنين على وشك الانتهاء من سطورها الأخيرة. اقبلت عليها الممرضة تحمل بين يديها باقة من الزهور البنفسجية وملاحظة من بيجاد كتب فيها «أظن أنك ترتدين الفستان البنفسجي الذي اشتريناه معاً، لم أجد طريقة أخبرك كم هو رائع عليك، إلا بإرسال شيء ما يشبهك ويشبهه.. إلى أن القاك».

«اليوم بعد ما مررت به في حياتي يمكنني أن اقول بكل ثقة، أن
بداخلنا جميعاً بذور كل شيء؛ الخير والشر، الحب والكراهة، الغضب
والسكون، الجحود والتسامح. نحن لم نختر وجود كل هذا بداخلنا،
لكننا نختار ما نرويه ونعتني به كل يوم ليكبر، ليكون له جذور ثابتة
في نفوسنا وفروع سامقة مثمرة لا تنضب ولا تفسد ثمارها.
أنا حنين إبراهيم يعقوب المصري... وتلك هي قصتي.

فهرس الموضوعات

إهداء	٥
جسر قصر النيل - جمال يتشوه	٦
جبل المقطم «سيدة الملك»	١٦
باب زويلة «مدخلان لباب واحد»	٣٨
حديقة الأزبكية «خيال الظل»	٥٩
بئر يوسف «السر القديم»	٨٨
البحيرة الجميلة «تبادل الأدوار»	١٣٦
دير الجبل - الإيمان	١٦٨
فهرس الموضوعات	٢٤٠